رواء
مجلة فكرية دورية

• هل صنع عدونا «حدود» أفكارنا؟
• التفسير المادي للشريعة: نظرات نقدية
• كيف أُنتج النظام السياسي في سوريا خلال قرن؟، دروس وعِبر
• هل الإخلاص لله.. أولوية في حياتنا اليومية؟
• كيف نقض القرآن أنماط التفكير الجاهلي الموروث؟

عامٌ على الفتح:
ميلادُ أمل.. وامتحانُ عمل

36
العدد السادس والثلاثون
رجب ١٤٤٧هـ - كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٢٥م

هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رَواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

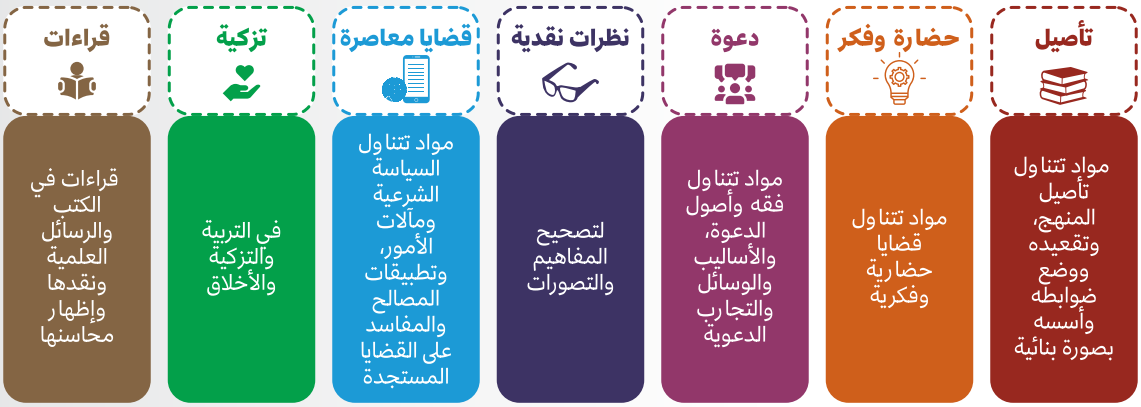

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

فهرس الموضوعات

١ هل صنع عدونا «حدود» أفكارنا؟ ٢
الافتتاحية

٢ عامٌ على الفتح: ميلادُ أمل.. وامتحانُ عمل ٨
د. حسان الجاجة

٣ التفسير المادي للشريعة: نظرات نقدية ١٣
د. عمر النشيواتي

٤ كيف أُنتج النظام السياسي في سوريا خلال قرن؟ دروس وعِبر ١٩
أ. محمد أحمد الخطيب

٥ هل الإخلاص لله.. أولوية في حياتنا اليومية؟ ٢٩
أ. هدى عبد الرحمن النمر

٦ كيف نقض القرآن أنماط التفكير الجاهلي الموروث؟ ٣٦
د. خالد بريه

٧ تحديات الإعلام الإسلامي البديل ومقومات رسوخه ٤٢
د. محمود حلمي

٨ فرّق.. تسُد! ٥٠
أ. محمود درمش

٩ سنة الفلاح في القرآن الكريم.. المفهوم والسننية ٥٧
د. فاطمة الزهراء دوقيه

١٠ قراءة في كتاب:
(محركات الأفكار.. تنقيب في الجذور ورصد للمنابع) ٦٤
محمد سعيد العامري

١١ قَالَتْ نَمْلَةٌ ٧٢
د.خير الله طالب

رواء

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر كل شهرين

هيئة الشام الإسلامية

أسرة التحرير

رئيس التحرير
د. عماد الدين خيتي

سكرتير التحرير
أ. محمود درمش

فريق التحرير
أ. جهاد خيتي
أ. عبد الملك الصالح
أ. أحمد خالد أحمد

التصميم والإخراج الفني
موشن
Creative Agency
motionat.com

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
rawaa@islamicsham.org

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org

كلمة التحرير

هل صنع عدونا «حدود» أفكارنا؟

قبل سنة من هذه الأيام كان السوريون يسطّرون صفحة من صفحات التاريخ، ويتوّجون فصول ثورتهم المباركة بدكّ حصون النظام البائد، ويعلنون نهاية ملحمة مقاومة شعبية استمرت قرابة خمسين عامًا في مقارعة طغمة فاسدة مجرمة اغتصبت السلطة وأفسدت في البلاد، ويفتحون فصلاً جديدًا للنهوض والبناء والازدهار بإذن الله تعالى.

ومع انصراف السوريين لبناء بلادهم، والتعامل مع مشكلاتها، والتركيز عليها، وفرح عامة المسلمين بهذا النصر المبين، والتوجه لأهلها بالنصح أو الانتقاد لما قد يرونه من أخطاء؛ تظهر (المسألة القُطرية) للواجهة مرة أخرى، بما فيها من حدود، وجنسيات، وثقافات، وغير ذلك. فما هي هذه المسألة؟ وما تأثيرها على النسيج المجتمعي للأمة؟ وكيف نتعامل معها؟

أعراض جانبية، وأوجاع عميقة:

مرّ على سوريا عقد ونصف من الصراع بين الأحرار والطاغية، دارت رحى المعارك في كل شبر من البلاد، وكان النصر كرًا وفرًا ومدًا وجزرًا، حتى تكلل النصر في السابع من جمادى الآخرة عام ١٤٤٦هـ، الموافق للثامن من كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٢٤م بفتح دمشق وتحريرها من حكم الطاغية الذي امتد حكمه مع حكم أبيه قريبًا من نصف قرن.

خلال سنوات الثورة الأربع عشرة حصل نوع من التقسيم الذي شهدته البلاد وأخذ مدى زمنيًا غير قليل، ظهرت خلالها فروقات ملموسة في

السمات الاجتماعية والثقافية بين مَن عاشوا تحت حكم النظام ومَن تحرروا من قبضته، فبرز لدى الفئة الأولى حذرٌ شديد في التصريح بالرأي المخالف، واستعداد واسع للتكيف وتحمل التبعات، والبحث عن مساحات آمنة للعيش مهما كانت ضيقة، وفي المقابل نجد لدى سكّان المناطق المحررة حرية أكبر في التعبير عن الرأي، والظهور على الإعلام، والاستعداد لخوض غمار التجارب.

ولم تكن هذه الفروقات تحوّلاً أخلاقيًا في ذوات الناس، بقدر ما كانت نتيجة لإعادة تشكيل غير واعية لعقد اجتماعيٍّ فرضته ظروف القهر أو التحرّر، فأعاد تعريف المقبول والممكن وحدود الفعل العام، خلال فترة زمنية قصيرة نسبيًا[١].

وإذا وسّعنا زاوية النظر إلى واقع الأمة اليوم، فسنجد أن المسلمين يعيشون في دول «قُطرية» يفصل بينها حدود مصطنعة رسمها المستعمر لا تستند إلى جبال أو أنهار أو معالم طبيعية، ولا إلى وحدة تاريخية أو اجتماعية. ومع تعاقب السنين وتنوع أنظمة وأشكال الحكم، وتبعية كل بلد من البلدان لثقافة شرقية أو غربية مفروضة عليها، ومحاولة كل نظام حكم صياغة هوية وطنية خاصة به؛ تعددت أنماط المعيشة والمستويات الاقتصادية والثقافية، ومن ثم مستويات التدين والمحافظة والانفتاح، ومع الوقت صار لسكان كل قطرٍ من الأقطار هويةٌ وسماتٌ اجتماعية وثقافية مختلفة عن الأخرى، بالرغم من صغر أحجام بعض البلدان، وتقاربها الشديد في العادات والانتماءات القبلية والعشائرية.

وهكذا فُصلت السودان عن مصر، وقُسّمت بلاد المغرب العربي إلى عدة دول لم تعرف شعوبها فرقًا بينهم يومًا في التاريخ والجغرافيا، وصارت الجزيرة العربية سبع دول، وبلاد الشام أربع دول على الخريطة، أما التقسيمات التي حصلت بعد الألفية فالعراق وليبيا واليمن وسوريا والسودان تعرضت لتقسيمات إضافية داخل القطر نفسه.

وما يهمنا أنّه في كلٍّ من هذه الأقسام والدول يجري تشكّل سمات وملامح هوية، وتجري صناعة عقد اجتماعي، ينتهي مع الوقت إلى نوع من المواطنة والانتماء.

حبّ الوطن والاهتمام به:

حبّ الأوطان غريزة فطرية متأصلة في النفوس، والإنسان مجبول عليها؛ بسبب النشأة والإقامة، والقرابات والصداقات، وهذه الأمور تنتج عن مجموعها ذكريات طفولة ومشاعر دافئة تبقى في أعماق الإنسان مهما كبر أو ابتعد، وإذا أضفنا إلى ذلك تقارب الطبائع والعادات الاجتماعية؛ فهذه تضيف للإنسان الشعور بالراحة عند البقاء في الوطن وتفضيله على غيره، ومن ثَمّ يحنّ إليه إذا غاب عنه، ويدافع عنه إذا هُوجم أو انتُقص منه.

وقد عبّر النبي ﷺ عن حبّه لمكة حين أُخرج منها قائلاً: (ما أطيبكِ من بلدٍ وأحبّك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منكِ ما سكنتُ غيرك)[٢]، ولما سكن المدينة أحبّها وأفصح عن حبه، (اللهم حبّب إلينا المدينة كحبّنا مكة أو أشد)[٣].

وجاء في سيرته أنّه: (كان إذا قدِم من سفر، فنظر إلى جُدُرات المدينة أوضَع راحلته، وإن كان على دابة حركها، مِن حبها)[٤]، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وفي الحديث دلالةٌ على فضل المدينة، وعلى مشروعية حبِّ الوطن والحنين إليه»[٥].

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: «وكان يحبّ عائشة، ويحبّ أباها، ويحبّ أسامة، ويحبّ سِبطيه، ويحبّ الحلواء والعسل، ويحبّ جبل أحد، ويحبّ وطنه، ويحبّ الأنصار، إلى أشياء لا تحصى مما لا يغني المؤمن عنها قط»[٦].

وقد مرض أبو بكر وبلال بن رباح ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة، فكان بلال إذا أقلع عنه المرض يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً
بواد وحولي إذخرٌ وجليل
وهل أرِدَنْ يومًا مياه مجنةٍ
وهل يبدوَنْ لي شامةٌ وطَفيل

(١) ليس على سبيل التعميم، لكنها سمات ملحوظة، ولا يعني عدم وجودها كليًا في المنطقة المقابلة.
(٢) أخرجه الترمذي (٤٢٦٨).
(٣) أخرجه البخاري (١٨٨٩) ومسلم (١٣٧٦).
(٤) أخرجه البخاري (١٨٨٦).
(٥) فتح الباري (٦٢١/٣).
(٦) سير أعلام النبلاء (٣٩٤/١٥).

اللهم العن عتبة، وشيبة، وأميّة بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء[1].

ومع أنّ الوطن يطلق في أصل اللغة على مكان مولد الإنسان ومحل إقامته ومنزله الذي يسكنه[2]؛ إلا أنّه في الاصطلاح المعاصر أصبح يُطلق على منطقة جغرافية أكبر تشكّلت حدودها باتفاقات وظروف سياسية وإن فرّقت بين أبناء المنطقة الواحدة، أو العشيرة والعائلة الواحدة، ومع ذلك فإنّ طولَ العهد بها وانتظامَ أهلها تحت قوانين موحّدة أورثهم نوعًا من الانتماء والميل الفطري إلى بلدهم خصوصًا عند نمو الذكريات والعلاقات والثقافات ضمن هذا الإطار المرسوم، وهذا أمر شعوري معتاد لا يلزم منه الإقرار بهذه الحدود أو الرضا بها.

> **حبّ الوطن الذي عاش فيه الشخص وترعرع أمر فطري طبيعي، ولا إثم في الانتساب له والاعتزاز به، وخدمة أهله، والحرص على بنائه وتنميته والعمل على الرقيّ به، وتخصيصه بالرعاية والاهتمام، وتقديم أهله في الأعمال والوظائف في إطار ما تقتضيه التنظيمات الحياتية والقانونية، وليس هذا من الرضا بحدود المستعمر، بل من الوعي وفقه الواقع وحسن التعامل معه**

تخصيص الوطن ببعض الأمور:

لأجل ما سبق فإنّ حبّ الوطن الذي عاش فيه الشخص وترعرع أمر فطري طبيعي، ولا إثم في الانتساب له والاعتزاز به، وخدمة أهله، والحرص على بنائه وتنميته والعمل على الرقيّ به، وتخصيصه بالرعاية والاهتمام، وتقديم أهله في الأعمال والوظائف في إطار ما تقتضيه التنظيمات الحياتية والقانونية، كاشتراطات الجنسية ونحوها.

وليس هذا من الرضا بحدود المستعمر، بل من الوعي وفقه الواقع وحسن التعامل معه، خصوصًا إذا أحسن توظيفه لخدمة الإسلام وأهله، ألم ترَ كيف كان الرسول ﷺ يغشى القبائل في موسم الحج ليعرض عليهم الإسلام، وقد كان في موسمهم من الشرك والتفاخر بالأنساب والقبائل ما فيه، أفكان غشيانه ﷺ لهم رضًا بما يصنعون؟!

وإذا كان الإنسان يتأثّر بالبيئة التي ولد فيها، ونشأ على ترابها، وعاش من خيراتها؛ فإنّ لهذه البيئة عليه (بمن فيها من الكائنات، وما فيها من المكوّنات) حقوقًا وواجباتٍ كثيرةً تتمثل في حقوق الأُخوّة، وحقوق الجوار، وحقوق القرابة، وغيرها من الحقوق الأخرى التي على الإنسان في أي زمان ومكان أن يُراعيها وأن يؤدّيها على الوجه المطلوب؛ وفاءً وحبًّا منه لوطنه.

كما يُشرع الدفاع عنه ضد المحتلين والأعداء، وخصّه بالدعاء بالصلاح والأمن والرخاء.

أين المحذور؟

المحذور أن يتحوّل هذا الحبّ الطبيعي إلى «قُطرية» متعصّبة؛ تجعل الدولة أعلى مرجعية وأقدس انتماء، وعقدُ الولاء والبراء على الوطن، بحيث يقدّم ولاء القطر على ولاء العقيدة، فيصير الدفاع عن «حدود الوطن» مقدّمًا على نصرة المسلمين المضطهدين في قُطرٍ آخر، والتعاون مع الكفار ضدّ دولة إسلامية أخرى بحجّة «المصلحة الوطنية».

فالوطنية الحقّة: قيام المسلم بحقوق وطنه دون نسيان أو انقطاع عن حقوق أمّته الكبرى، من الولاء، والانتماء، والنصرة وغيرها.

هل صنع عدوّنا «حدود» أفكارنا؟

قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. فلم يجعل الله الشعوب والقبائل للتعادي والتفاضل القبلي أو القطري، بل للتعارف.

(١) متفق عليه، البخاري (١٨٨٩)، ومسلم (١٣٧٦) مختصرًا باختلاف يسير. وهذه الأبيات من بلال رضي الله عنه تعبّر عن حنينه وتمنّيه الرجوع إلى مكة التي كانت فيها صحته، فهو يتمنى أن يبيت ليلة واحدة في وادي مكة، ويطفئ أشواقه الحارة من مياه مجنة -وهي ماء عند عكاظ على أميال يسيرة من مكة بناحية مرّ الظهران، وكان به سوق في الجاهلية- وأن يمتّع ناظريه بمشاهدة الإذخر والجليل، وهما نبتان من الكلأ طيب الرائحة يكونان بمكة، وأن يشاهد شامة وطفيلاً، وهما جبلان متجاوران جنوب غرب مكة على قرابة (٩٠ كم) منها. ثم جعل بلال رضي الله عنه يدعو الله على الذين أخرجوهم من مكة إلى أرض بها وباء وأمراض، فقال: «اللهم العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف»، وهؤلاء من رؤوس المشركين وزعمائهم في مكة، مصدر الشرح: الموسوعة الحديثة بموقع الدرر السنية، https://dorar.net/hadith/sharh/5853.

(٢) العين (٤٥٤/٧)، تهذيب اللغة (٢١/١٤)، الصحاح (٢٢١٤/٦)، المخصص (٥٠٣/١).

لكنّ الاستعمار الأوروبي (ثم الأمريكي) رسم حدودًا مصطنعة كما أشرنا آنفًا (ضمن اتفاقية سايكس- بيكو وما بعدها) ليحوّل الأمّة الواحدة إلى دويلات متصارعة، فهل نجح فعلاً في أن ينقل هذه الحدود من الخريطة إلى عقولنا وقلوبنا، نعقد الولاءات والرايات عليها، حتى صرنا نراها قَدرًا إلهيًا لا يجوز تجاوزه؟

المحذور في المسألة الوطنية: أن يتحوّل الحبّ الطبيعي للوطن إلى «قُطرية» متعصّبة؛ تجعل الدولة أعلى مرجعية وأقدس انتماء، وعقدُ الولاء والبراء على الوطن، بحيث يقدّم ولاء القطر على ولاء العقيدة، فيصير الدفاع عن «حدود الوطن» مقدّمًا على نصرة المسلمين المضطهدين في قُطرٍ آخر

صور ونتائج خطيرة:

للتعامل الخاطئ مع المسألة القُطرية مظاهر ونتائج وتطبيقات مرفوضة، نذكر بعضًا منها ليتّضح المقصود:

أ. جعل المواطنة مقدّمة على الدين:

وهذا يظهر بشكل جليّ في بلدان المهجر، فتجد المهاجرين من بلد معيّن يقرّبون مَن كان من أهل هذا البلد في البيع والشراء والمجاورة والصحبة ولو كانوا من ملّة أخرى غير الإسلام، في الوقت الذي يتجنّبون فيه مخالطة أمثالهم من بلدان أخرى ولو كانوا مسلمين، والمشكلة هنا ليست مجرّد التعامل؛ فهي في نطاق المباحات، لكنّها في جعل المواطنة أساسًا للتمييز والتفضيل والتعامل.

ب. إهمال التفاعل مع قضايا المسلمين خارج القطر:

وهذا كثير اليوم، خصوصًا في وسائل الإعلام المأجورة، حيث يكثر طرح عبارات ومفاهيم من قبيل: أنا مواطن دولة كذا، أو: البلد الفلاني لأهله؛ ويُقصد بذلك التضييق على الوافدين إليه من مواطني بلد آخر للعمل والاستثمار، أو التملّص من قضايا المسلمين بنحو: فلسطين ليست قضيتي، أو المدافعة عن خذلان قادة الدول المسلمة للقضايا الإسلامية العادلة التي يتعرض فيها المسلمون للبطش والضيم والتهجير بتزيين موقف هؤلاء القادة وتصحيحه، والنيل من منتقديهم، بل ومن الشعب المضطهد بحجج واهية تقوم كلّها على الانتماء القطري.

ج. «القطرية الدينية»:

والتي تتمثّل في منظومة من الفتاوى والأحكام التي تُبنى على أساس الولاء أو الانتماء الوطني، لا على مقتضيات الشرع ومقاصده العامة، وهي ثمرة الإغراق في الانتماء القُطري وما يلحقه من تبعات واعتبارات. وإذا أُلبس هذا المسلك لباسًا شرعيًا كانت مآلاته بالغة الخطورة؛ إذ قد يُتعامل مع الخلافات بين البلدان معاملةَ العداوات الوجودية، فيُحرَّض على القتال، وتُستدعى مفاهيم الولاء والبراء في غير مواضعها، مع الغفلة عن كون هذه الحدود في أصلها مصطنعة، وأنّ غالب هذه الكيانات خاضع لسياسات دولية ومصالح ضيقة.

والقطرية الدينية بهذا الاعتبار من أخطر المشاكل التي أصابت الأمة في واقعها المعاصر؛ إذ حوّلت الإسلام من مشروع حضاري ذي أفق عالمي إلى مجرد غطاءٍ رمزي لتعزيز الكيان الوطني.

وما يزيد الأمر إيلامًا أنّ شريحة واسعة من الشباب الملتزم لا تشعر بوجود خلل في هذا المسلك، بل يتعزز لديها شعور بالاكتفاء الديني، وتتوهم أنّها على الصواب التامّ؛ لأنّها تجمع بين الالتزام الشخصي والحماسة الوطنية.

د. التعصّب لمظاهر وقشور لا وزن لها:

وهذا مما ابتلينا به في هذا الزمان، فتجد التعصّب يبلغ ذروته لمباراة كرة قدم، فتتجاوز المسألة التشجيع العادي إلى هتافات وعبارات مسيئة لشعوب بأكملها، ثمّ قد يتطوّر الأمر إلى التفاخر برموز ومعاني باطلة من قبيل التشفّي بمآسي بلد بسبب خصومة رياضية وما شابه، ومن أسوأ صور هذا التعصب: ما يحصل من معجبي رموز الوسط الفني من ممثلين ومطربين شغلهم الشاغل إفساد الأجيال وإشغالهم عن معالي الأمور.

كيف نعالج انتقال الحدود إلى عقولنا؟

الإسلام بما فيه من وحي وتشريعات وآداب كفيل برسم منهج صالح لكلّ زمان ومكان، ينعم فيه الناس بالخير والسعادة في كلّ الشؤون، ومما يصلح ذكره لمعالجة المسألة القطرية ما يأتي:

كيف نعالج انتقال "الحدود" بين الدول إلى عقولنا؟

١. التربية على تعظيم الله في النفوس، وتعظيم ما يعظمة الله

٢. تعلم سيرة النبي ﷺ وسنته في التعامل مع المسلمين

٣. التوعية بكيد الأعداء وخططهم ي زرع الشقاق والخلاف بين المسلمين

٤. تحقيق الأخوّة الإيمانية فوق العصبيات الضيقة

٥. ضبط الولاء والبراء على أساس الدين لا الأوطان

٦. العمل على التأليف وجمع الكلمة بين المسلمين

٧. فهم مقصود حماية الأوطان المسلمة

٨. نصرة القضايا الإسلامية أينما كانت بحسب الاستطاعة

٩. التوازن في مسألة الهجرة والمسؤولية الجماعية للمسلمين داخل أوطانهم وخارجها

للتعامل الخاطئ مع المسألة القُطرية مظاهر وتطبيقات مرفوضة، منها جعل المواطنة مقدّمة على الدين، وإهمال التفاعل مع قضايا المسلمين خارج القطر، وتسرب هذه الأفكار إلى الفتاوى التي تُقدم القطر في الولاء على ولاء الإسلام وأخوته، وإذا وصل ذلك إلى التعصب لمظاهر وقشور يختزل فيها الوطن فهذا شر عظيم

١. التربية على تعظيم الله في النفوس:

فإذا عُظِّم الله هان كلّ شيء في نفس المؤمن، فلا يكون همّه إلا ما يرضي الله، وترتفع حساسيته تجاه ما يسخط الله، ويكون شغله الشاغل التقرّب إلى مولاه بالعبادة وفعل ما ينفع العباد والبلاد.

٢. تعلم سيرة النبي ﷺ وسنته:

وفيها أنّ التفاضل يكون بالتقوى، ومن خلال سيرته يلحظ ذوبان الفوارق بين البلدان والأعراق والألوان، فضلاً عن ارتفاع قيمة الانتماء للدين والاعتزاز به.

٣. التوعية بكيد الأعداء وخططهم:

ومن ذلك دراسة تاريخ الاستعمار وتاريخ نشوء الدول القطرية الحديثة في أوروبا، وكيف كانت كلّ منها تعتقد أنّ شعبها متفوق على بقية الشعوب، وكيف نقلت لنا أفكارهم عبر الاستعمار وزرعت في دولنا وإعلامنا ومناهجنا.

٤. تحقيق الأخوّة الإيمانية فوق العصبيات:

وتحقيق الأخوّة الإيمانية لا يناقض حبّ الأوطان، بل يحفظها ويصون أمنها واستقرارها. أمّا الدعوة إلى عصبيات تُقدَّم على رابطة الإيمان، وتُعطَّل بها حقوق الأخوّة والنصرة، فهي دعوة مردودة شرعًا؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا تقديم لغير ما قدّمه الله ورسوله.

٥. ضبط الولاء والبراء على أساس الدين لا الأوطان:

ومن أعظم ما يعالج به الخلل القُطري: تصحيح مفهوم الولاء والبراء، ليكون قائمًا على رابطة الإيمان، لا على الأوطان والانتماءات والشعارات المحدثة. فلا تُعقَد المواقف الشرعية، ولا تُبنى الخصومات والاصطفافات إلا على ما قرّره

الوحي من التقوى والإيمان والصبر، لا على قومية أو وطنية أو عصبية جاهلية.

٦. العمل على التأليف وجمع الكلمة:

فإذا رأى الناس العلماء والقدوات يتسامون فوق الحدود القطرية، ويضعونها في موضعها الصحيح، ويتنازلون عن حظوظ أنفسهم لصالح جمع الكلمة، فعلوا مثلهم واقتدوا بهم وقدموا ما ينبغي أن يقدم.

وإذا صارت هذه الحدود دينًا نتقاتل من أجله ونكفّر بعضنا من أجله، فقد انتصر عدونا وورثنا نحن الجاهلية بثوب عصري.

وإذا كانت الحكومات والأنظمة قد ألزمت نفسها باتفاقيات ومعاهدات سياسية وقانونية قد تحملها على بعض التصرّفات أو المواقف، فإنّنا أفرادًا وجماعات لم نوقّع على شيء من هذا، ولا يلزمنا إلا ميثاق واحد هو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وقوله ﷺ: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى)[1].

٧. فهم مقصود حماية الأوطان المسلمة:

إنّ حماية الأوطان المسلمة في ميزان الشرع ليست تعظيمًا للأرض لذاتها، وإنما هي حماية للدين، وصيانة للأعراض، وحفظ للأموال، ودفعٌ لأطماع الأعداء. فكلّما قويت بلاد المسلمين وزادت مَنعتُها؛ تيسّرت إقامة الدين، وحُفظت الحقوق، ودُفع البغي، مع بقاء الأخوّة الإيمانية قائمة حتى في حال وقوع الظلم أو البغي من بعض المسلمين.

٨. نصرة القضايا الإسلامية بحسب الاستطاعة:

فالأمّة تأثم إذا لم تقم بنصرة المسلم العاجز من غير عذر شرعي؛ لأنّ النصرة حقّ ثابت من حقوق الأخوّة الإيمانية، لا يسقطه ضعف ولا اختلاف مكان. وإذا عجز المسلم عن الهجرة أو عن إظهار دينه لمانع قاهر، بقي حقّه في النصرة قائمًا، وبقيت مسؤوليّة الأمة قائمة بقدر ما تملك من قدرة ووسيلة.

٩. التوازن في مسألة الهجرة والمسؤولية الجماعية:

فكما يُطالَب المسلم المقيم في دار الكفر بالهجرة إذا قدر عليها، ويُلام على التقصير فيها، فكذلك تُلام الأمة إذا قصّرت في نصرة المسلم العاجز عن الهجرة، أو منعتْه اعتباراتٌ قومية أو وطنية من الالتحاق بإخوانه. فالتكليف هنا متبادل، والمسؤولية مشتركة، بحسب القدرة والاستطاعة.

> **لم يجعل الإسلام الوطن بديلاً عن العقيدة، ولا المواطنة نقيضًا للأخوّة، ولا الكيانات السياسية ناسخةً لميثاق الإيمان. والحدود إذا بقيت على الخرائط لم تُفسد الوعي، وإنما الخطر حين تستقر في القلوب. ومعركة الأمة اليوم ليست مع الجغرافيا؛ بل مع تصحيح البوصلة، واستعادة مركزية الدين، ليعود الإسلام إطارًا جامعًا، لا زينةً تخدم كياناتٍ عابرة**

وختامًا:

لم يكن أخطرُ ما فعله الاستعمار في جسد الأمة رسمَ حدودٍ على الخرائط، بل نجاحه -إلى حدٍّ غير قليل- في نقل هذه الحدود إلى الوعي والوجدان، حتى غدت معيارًا للولاء والخصومة، ومفتاحًا لفهم الدين وتنزيله. وحين تتحوّل الحدود من واقعٍ سياسيٍّ مُدار إلى هويةٍ ذهنيةٍ مُقدَّسة؛ تختلّ الموازين، ويُقدَّم ما حقّه التأخير، ويُؤخَّر ما حقّه التقديم.

ومن هنا يتبيّن أن جوهر الإشكال ليس في وجود الحدود بوصفها واقعًا سياسيًا، بل في العقد الاجتماعي الذي سمح لها بالتحوّل إلى مرجعية ذهنية وقيمية تزاحم مرجعية الإيمان.

إنّ الإسلام لم يجعل الأوطان بديلاً عن العقيدة، ولا المواطنة حاجزًا أمام الأخوّة، ولا التنظيمات السياسية ناسخةً لميثاق الإيمان، فبقاء الحدود على الخريطة لا يُفسد الوعي، أمّا انتقالها إلى العقول والقلوب فهو بداية الانقسام الحقيقي. ومن هنا، فإنّ معركة الأمة اليوم ليست مع الجغرافيا، بل مع إعادة ترتيب القيم، واستعادة مركزية الدين، وإعادة وصل ما قُطِع في الوعي، فإذا صلحت البوصلة، سهل التعامل مع الحدود دون أن تتحوّل إلى أصنام جديدة، ويعود الإسلام إطارًا جامعًا لا شعارًا مزيَّنًا لخدمة كياناتٍ عابرة.

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٦).

عام على الفتح: ميلادُ أملٍ.. وامتحانُ عمل

د. حسان الحاجة (*)

عامٌ مضى على تلك اللحظات التي تغيّر فيها وجه الشام، لكن وهجها ما يزال يتردد في الذاكرة كأنها البارحة. ساعة فريدة توقفت فيها القلوب بين خوفٍ ورجاء، ثم انفجرت الأرض تكبيرًا حين انكشف الليل عن فجر التحرير. لم يكن الفتح مجرد خبرٍ عابر، بل منعطفًا هزّ تاريخ سوريا والأمة كلها، وفتح أبواب الأسئلة على المستقبل ومسؤولياته الثقيلة. وهذا المقال محاولة للعودة إلى تلك اللحظة الفاصلة، لنقرأ فيها سنن الله الجارية، ونستبين معالم الطريق، ونتهيأ لما يتطلّبه البناء من عمل وإعداد.

عام مضى.. لكن ليس كسائر الأعوام.

ومتى عَرَفتْ سوريا قبله طعم الأمن أو معنى السلام؟!

سـلامٌ يا نسيمَ الشامِ طَلْقُ
وفتـحٌ لاحَ فجرًا يا دمَـشْقُ
عُقودُ الذُّلِّ والطـغيانِ وَلّت
وشمسٌ أشرقت فالأُفْقُ بَرْقُ
وما ضـاعَت دماءٌ في ثراها
فوعـدُ اللهِ للأحـرارِ حـقُّ
مَضى عامٌ؛ فكَمْ للّهِ حَـمْدٌ
وكَم للمَجْدِ صُنَّاعٌ وسَـبْقُ
فَشمّر فِي البناءِ وسُدَّ ثَغرًا
لنـرفَعَ رايةً ويدومَ خَـفْقُ

في مثل هذه الأيام قبل عام مضى بتمامه وكماله، كنّا نحبس الأنفاس ونحنّ نعدّ الدقائق والساعات، كانت دموع الفرح تنهمر مع كلّ شبرٍ يُحرَّر، وكانت أصوات التكبير تشقُّ عنان السماء مع كلّ فتحٍ يمنّ الله به على عباده المجاهدين.

(*) مدير جمعية تاج لتعليم القرآن الكريم، داعية ومربي.

حلب تتحرر، الأخضر يتمدّد، درعا تنتفض، جبهة حماة تشتعل... وعدّاد المدن والبلدات والقرى التي تنضمّ إلى راية الحرية واللون الأخضر لا يتوقف، حتى بات يتغير في الأيام الأخيرة كلّ ساعة.

الفاتحون على أبواب حماة، والحمويّات يزغردن لاستقبال المجاهدين، والروسي يقصف جسر الرستن في محاولة يائسة لكبح هدير طوفان الفاتحين، حمص تلتحق بركب التحرير، والجرذان تفرّ أمام وطءِ أقدام المجاهدين.

لحظات عصيبة ممزوجة بأملٍ عظيم، في ليلة لم يكد ينام فيها أحد، ولم يغمض فيها جفن.

ترقّب وأمل...

دير عطية، النبك، القطيفة، الغوطة، الكسوة، أسوار دمشق جنوبًا وشمالاً... نعم، لقد وصلها الفاتحون.

السفّاح يفرّ، ودمشق تتحرر.

ثمَّتَ صرخةٌ تشقُّ صمت السحر: «الأسد سقط يا جماعة... سوريا تحررت!».

وهناك... حيث الألم والظلام..

أجسادٌ أنهكها العذاب ولم ترَ النور منذ سنين..

أطفالٌ حيارى ولدوا في مسالخ الأسد، لم ترَ أعينُهم سوى جدران الصمت وعذاباتها الرهيبة.

نساءٌ حَرائر..

شبابٌ في عمر الزهور..

رجالٌ احدودبت ظهورهم وذابت أجسادهم تحت وقع السياط وهول العذاب..

تُفتَّح لهم أبواب السجون وتُكسر القيود.

أصوات قعقعة البنادق تتعالى وهي تكسر الأقفال وتحطم الأغلال.

ما الذي يجري؟

ما الذي يحدث؟ يتساءلون بين وجل وذهول..

فتأتيهم البشرى كأنها أضغاث أحلام: «اطلعوا... اطلعوا... الأسد سقط!»..

فتختلط دموع التحرير وكسر القيود بصيحات التكبير والحمد والتهليل.

دموع في الميادين، ودموع في الزنازين، ودموع في الشوارع، ودموع خلف الشاشات... دموعُ فرحٍ تكاد تسيل بها الطرقات في أصقاع الأرض كلها.

جباهٌ تخرّ لله ساجدة، لا تعرف بأيّ عبارات الحمد تلهج.

ساعاتٌ لم يعشها السوريّ الحرّ وحده، بل عاشها كلّ مسلم حرٍّ في مشارق الأرض ومغاربها، بل كلّ صاحبِ ضمير؛ عاشها الشجر والحجر والدوابّ والجماد.. كلٌّ يسبّح بحمد الله ويلعن الطاغية.

لقد جاء الفتح العظيم من عند الله بعد عقودٍ من القهر والطغيان، حتى بلغت القلوب الحناجر، وبلغ اليأسُ بكثيرٍ من الناس منتهاه.

لم يكن الثمن رخيصًا... كان باهظًا بقدر ما تجذّر ذلك الطاغوت؛ فكان اقتلاعُه أشقَّ من اقتلاع جبلٍ من مكانه.

دماءٌ وأشلاء، معتقلون ومعتقلات، صرخاتٌ وأوجاع، قتلٌ وإعدامات خلف القضبان، مقابر جماعية، تهجيرٌ وتشريد، غرقٌ في البحار، ضنْكٌ في الخيام والأوحال، براميلُ وقصفٌ ودمار.

> **لحظات النصر لم يعشها السوريّ الحرّ وحده، بل عاشها كلّ مسلم حرٍّ في مشارق الأرض ومغاربها، بل كلّ صاحب ضمير؛ عاشها الشجر والحجر والدوابّ والجماد..**

وفي مقابل ذلك... جهادٌ وصبر، ورباطٌ وعزائم، هتافاتٌ ومليونياتٌ ملأت الساحاتِ تحت زخّات الرصاص وتهديدات الشبيحة.

شهداءُ ومضحّون، شبابٌ باعوا حياتهم لله، خنساواتٌ ومجاهدات، قادةٌ وميدانيون، أطباءٌ لا يعرفون النوم، إعلاميون بلا حصانة، فرقُ إنقاذٍ بلا حماية، عمالقةٌ عبّدوا لنا الطريق بتضحياتهم ودمائهم.

عشرات، بل مئات آلاف الشرفاء... بل ملايينُ شاركوا في صناعة النصر، فما نكصوا ولا تراجعوا.

سنواتٌ عجاف مرّت على سوريا كأقسى ما مرّ على أمّةٍ من البلاء... كان فيها التمحيص والامتحان، والبذل والإعداد والجهاد، والصبر والرباط

والاحتساب، رغم تكالب الأعداء واستماتتهم في تعويم الطاغية.

ومع ذلك... لم يتراجع أهل الحق، ولم تخدعهم الوعود والعروض، فالهدف كان واضحًا مهما غلا الثمن: لا بديل عن إسقاط النظام.

عصابةٌ تسلّطت على رقاب الناس، سمَّوها زورًا حكومة و«نظامًا»، وما هي إلا شرذمةٌ جمعت أحقرَ البشر بأخَسّ الطباع وأرذل الخلال، واجتمع فيها من اللؤم والطغيان ما لم تسمع بمثله الأمم.

ساندها من بني جلدتنا أراذلُ سفَلَة، وخوَنةٌ وُضعاء، باعوا دينهم بدنيا غيرهم، ورضي أحدهم أن يكون للطاغية حذاءً، فيحمل للغدر والخيانة لواءً.

فكان الناس على ثلاثة أصناف: ظالمٌ لنفسه، ومقتصدٌ، وسابقٌ بالخيرات بإذن الله.

نالَ الشّرف من لحق بالركب وضرب بسهم في اقتلاع الطاغية، وباء بالخزي والعار من كان شاهدَ زورٍ وسهمَ سوءٍ في كنانة الطغيان.

> **الفتح ليس خاتمة الطريق، بل بدايةٌ لمرحلةٍ جديدةٍ، لها استحقاقاتها وفروضها**

واليوم.. وبعد مضي عام على ملحمة الفتح وبيارق النصر، على لحظاتٍ أعادت للبلاد روحها، وللعباد كرامتها، لا بدّ من وقفات نراجع فيها مسيرتنا، بعد أن انتقلنا من مرحلة الابتلاء بالاستضعاف إلى الابتلاء بالاستخلاف...

فالفتح ليس خاتمة الطريق، بل بدايةٌ لمرحلةٍ جديدةٍ، لها استحقاقاتها وفروضها.

وإذا كان العام الأول من الفتح قد حمل إلينا دموعَ الفرح وذكرياتِ التضحية والبطولة، فإن العام الثاني يطرق أبوابنا بسؤال يقرَع القلوب:

ماذا فعلنا لنصون هذا الفتح ونحفظ مكتسباته ونحقق شروط التمكين؟

هذه وقفات سريعة، نجمعُ فيها بين جيَشان العاطفة والوعي بالواجبات، لتكونَ معالمَ طريقَ لنا تُبَصّرنا بمواطن القوة والإيجابيات فنعزّزها، ومواطن القصور والخلل فنرمّمها ونتجاوزها، ولتكون ذكرى الفتح محطةَ مراجعةٍ جادّة في مسيرة البناء والتمكين.

١- شكر المنعم.. أولُ دروس الفتح وبوابةُ التمكين:

فالفتح محضُ فضل من الله، جاء بعدَ أثمانٍ باهظة، وأنفاسٍ محبوسة، وقلوبٍ طالما انتظرتِ الخلاص.

فهل قابلناه بما يليق به من الشكر والامتنان، ونسبةِ الفضل فيه للواحد المنّان؟

وهل ما تزال القلوب تلهج بالحمدِ والثناء، متذكّرةً كيف بدّل الله حالنا من الضرّاء إلى السرّاء؟

أم كانت لحظاتِ فرحٍ عابرة... عشناها كطيفٍ جميل، ثم اعتدنا النعمة فنسيناها في زحمة الأيام؟

بل تجاوز بعضُ الناسِ ليقول جاحدًا النعمة: «ما الذي تغيّر»؟!

في حين أنّه قد تنفّس الحجرُ والشّجر... ووُلدت البلاد من جديد!

هل ترجمنا الحمدَ عملاً يضعُنا على طريق التمكين؟

أم اكتفينا بأن نكون على منصّة المراقبين، وحَوْلنا من يصنعُ المجد ويُكمل المسير!

٢- العمل الصالح.. طاعةٌ وقُربةٌ وإخلاصٌ وإنابة:

فالفتح الذي جاء من عند الله لا يُصان إلا بما أمر الله، إيمانٌ وعملٌ صالح، وتجديدُ العهدِ مع الله بالطاعة والتوبة والإخلاص، ومراعاةٌ لحدود الشرع على صعيد الفرد والمجتمع والمسؤول، حتى تستويَ السفينةُ وترسوَ على شاطئ التمكين.

ولنسألْ أنفسنا:

هل نحن اليوم أقربُ إلى الله مما كنا قبل الفتح؟

وهل ترجمنا الشكر إلى عملٍ يُرضي الله، لتدومَ نعمة الأمن والحرية؟

أم قسَت القلوب ووقَعْنا في الغفلة والجحود والعصيان؟

٣- من فرحةِ النّصر إلى مشروعٍ حضاري.. بناءُ الإنسان ثم البنيان:

فالنصر الذي يَصنعُ المستقبل، ويعيد سوريا إلى مكانها الريادي، هو الذي يتحوّلُ وهجُه إلى مشروع بناء؛ بناء الإنسان القادر على حمل الأمانة قبل بناء العمران.

نحتاجُ أن ننتقلَ من هديرِ الجبهاتِ إلى هدير المعامل والمدارس والجامعات والمؤسسات، وأن تتحوّلَ طاقاتُ الثورة إلى طاقاتِ إنتاج، وأن نعملَ على تأسيس اقتصادٍ مقاوم منتج، يستثمر الخبرات ويُوظّفُ الطاقات، ويتخلّص من التبعيَّة والعيش على المقايضاتِ أو المساعدات.

فالشرذمة الآفلة قالت: «الأسد أو نحرقُ البلد»، وكانت مشروعَ تدمير وإفساد، وآن لنا بعد زوالها أن نعبُرَ إلى مشاريع البناء والإصلاح.

فهل بدأنا فعلاً مشروعَنا الحضاري؟

أم ما تزال بهجةُ النصر في حيّز الشعور أكثر منها في حيز العمل والنهضة والبناء؟

> **النصر الذي يَصنعُ المستقبل، ويعيد سوريا إلى مكانها الريادي، هو الذي يتحوّلُ وهجُه إلى مشروع بناء؛ بناء الإنسان القادر على حمل الأمانة قبل بناء العمران**

٤- لزومُ الثغور وسدُّ الفُرَج.. مسؤوليةٌ فرديةٌ وجماعية:

فالأوطان لا تُبنى بالمتفرجين، ومسؤوليةُ البناء تقع على عاتقِ كُلٍّ منا، فردًا كان أو مؤسسةً أو مجتمعًا أو دولةً ومسؤولين، كلٌّ بحسب موقعه وما أقامَه الله فيه من الأمانة والحِمل والمسؤولية. وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: (كلُّكم راعٍ وكُلُّكم مسؤولٌ عن رعِيّته)، كلٌّ مطالبٌ بأن يسُدّ ثَغره..

الأمير في إمارته، والوزير في وزارته، والمسؤول في موقعه، والمعلم في مدرسته، والعامل في ورشته، والإعلامي في ميدانه، والأب في أسرته، والطالب في دراسته...

فليَسألْ كلٌّ منّا نفسه بعد عامٍ كامل:

- ما هي الثغور التي أقِفُ عليها؟
- وأين موقِعي في خريطة بناء الأوطان؟
- ما اللَّبنَةُ التي وضعتُها في هذا البناء؟
- هل لزمتُ ثغري، أم اكتفيتُ بالترقُّب والنقد واللومِ دون عملٍ أو إصلاح؟

٥- مراجعة المسيرة.. وشجاعة الاعتراف بالخلل والقصور:

لا يَسْلمُ عاملٌ من خطأ، ولا يَسلَمُ عَملٌ من خلل، والتمكين لا يناله مَن لا يُحسنون المراجعةَ والاعترافَ بالأخطاءِ لتصويبها، وبالقصور لتداركه، ولا يصلُ إليه مَن لا يمتلكون الشجاعَة في قبول النصح وتقبّل النقد.

ونحن أحوج في مرحلة البناء أن نُكثر من المراجعة، وأن نكرّر السؤال:

- ما الإنجازاتُ والقراراتُ الصحيحة التي وُفِّقنا إليها؟
- وما مواضع القصور التي يجب أن نتداركها؟
- وما الأخطاء التي وقعنا بها لنصحّحها؟
- وهل نمتلك الشجاعة لنقول: هنا وقع الخلل.. وهنا يجب الإصلاح؟!

٦- النُّصحُ والاحتساب.. صِمَام الأمان في رحلة التمكين:

فبالنصح تُصَحَّحُ الأخطاء، ويُتداركُ الخلل، وتُحفَظ مسيرة البناء، وتُحمى سفينةَ المجتمع من الغرق.

ولا غنى لراعٍ ولا لرعيّة عن النُّصح وقبول النّصيحة، وبقدْرِ ما يكونُ الاحتسابُ والأمرُ بالمعروفِ والنّهيُ عن المنكرِ حيًّا في المجتمع، بضوابطه وآدابه، بقدْرِ ما يُهدى أفرادُه ومسؤولوه للرشاد، فيحقّقوا خَيريّة الأمة ويسلكوا سبيل التمكين.

٧- وحدةُ الصفّ.. فريضةُ البناء ودرعُ النصر:

إنّ العدوّ المتربّص الذي لم ينجح في هزيمتنا عسكريًّا، لن يألوَ جهدًا في تمزيق صفّنا الداخلي وتفريقِ كلمتنا لنفشلَ وتذهب ريحُنا.

وإن وحدة الصف هي الدّرع الذي نحمي به هذا النصر من التمزّق والاضمحلال.

فبناءُ أيّ مجتمع إنما يكون باجتماع الكلمة، ووحدة الصف، ونبذِ الفرقة والخلاف.

ونحن أحوج ما نكون بعد سنوات الثورة وعنائها لتضميد الجراح، وبناء جسور الثقة، وإغلاق أبواب التنازع والخلاف، ورفض مشاريع التمزيق مهما تلوّنت، وتجنُّب التعصّب المقيت، لنبني وطنًا يسوده الحبُّ والتكاتف والإخاء، ولا تُفرِّقنا عادياتُ الأيام ونزَعَاتُ الأهواءِ بعد أن استشعرنا الأمنَ والأمان، وكُنّا قد عِشنا بُرهة من دهرنا يُجمّعنا الهمّ والهدف، ويفدي أحدُنا أخاه ونحن تحت القصف والعدوان.

فهلّا وقفةٌ صادقةٌ نحاسب فيها أنفسنا، ونُعَبّد فيها جسور المحبّة والإخاء، لنكون يدًا واحدةً في مشروع النهضة والبناء؟!

٨- إقامة العدل.. محاسبةُ المجرمين وتسكينُ قلوب الثكالى:

فالعدل هو الروح التي تتنفّس بها الأوطان، وهو أوّل الطريق لبناء بلدٍ ينعَمُ فيه المرءُ بالحرّية وتُصان فيه كرامة الإنسان.

وهل قامت الثورة إلا رفضًا للجَور والظلم؟

لا يكتمل الفتح إذن إلا بتحقُّق العدالة، ومحاكمةِ المجرمين، ولا يهنأ بالُ ثكلى وأرملةٍ ويتيم ومشرّدٍ ومكلوم إلا بتحقيق العدالة الانتقالية، ومُحاسبة المجرمين والقِصاص العادل منهم، وألّا يرى مكلومٌ غريمَه حرًّا طليقًا، فضلاً عن أن يكون ذا منصبٍ أو في موقع مسؤولية.

> **العدل هو الروح التي تتنفّس بها الأوطان، وهو أوّل الطريق لبناء بلدٍ ينعَمُ فيه المرءُ بالحرّية وتُصان فيه كرامة الإنسان**

٩- بناءُ مؤسساتِ الحُكم الراشد.. بالقوة والأمانة لا بالمحاباة والولاءات:

فمرحلة البناء تستلزم: الرؤيةَ الثاقبة، والقيادةَ الراشدة، وبناءَ المؤسساتِ المتخصصة، وترسيخَ العمل المؤسسي المتّصف بالانضباط والإتقان والمسؤولية، وتعزيزَ أنظمته ومواكبةَ تطوّره.

وينبغي أن تبنى المؤسساتُ على معيارين لا ثالث لهما: القوّة والأمانة، وألّا نسمح لعهد الظُّلم أن يتسلّل عبر أبواب الفوضى أو المحاباة أو ضعفِ الكفاءة، أو أن يكون في مفاصل الدولة ومؤسساتها فلولُ النظام البائد وأربابُ الفساد الآفل.

١٠- الحذرُ من التآكل بعد النصر.. وإبقاءُ قصة الفتح حيَّةً في الوجدان:

فمرحلة ما بعد النصر، وإن كانت مرحلة بناءٍ ونهوض، إلا أن روح الثَّورة يجب أن تبقى حيّةً وجَذوتُها متوقِّدة، ليست ثورةَ التمرّد على النظام والقضاء على الطغيان التي انتهت وآتت أُكُلَها ونعيشُ اليوم ذكرى انتصارها ونعمةَ الفتح بعدها، وإنما ثورةُ ربطِ الأجيالِ بذاكرةِ الفتح وقصّة الثورة، لتبقى العيونُ مفتوحةً على الشام، فلا يُزوَّر تاريخ، ولا يُختطَفُ نصرٌ، ولا تُمحَى جريمة لم يُقتصَّ من مرتكبها، ولا يرتفعُ في سوريا الجديدة رأسٌ لمجرم ولا لقاتلٍ سفّاح.

> **الفتحُ عهدٌ جديد أنعم الله به علينا بعد طول بلاء، ولا يدومُ إلا بطهارةِ القلوب واجتماعِ الكلمة وصِدق السّعي**

وخلاصة القول:

إننا معنيون جميعًا بالمحافظة على مكتسباتِ النصر، والمساهمةِ في بناء دولة القانون والعدل والمؤسسات، التي يكونُ رائدُها وسبيلُها تحقيقَ رضى الله ونصرةَ شريعته وإعلاءَ كلمته.

فالفتحُ عهدٌ جديد أنعم الله به علينا بعد طول بلاء، ولا يدومُ إلا بطهارةِ القلوب واجتماعِ الكلمة وصِدق السّعي.

ونحن أحوجُ ما نكونُ إلى تجديد العهدِ مع الله، والتّواضُع له، ونسبةِ الفضل لهُ وحده، والأخذِ بالأسبابِ حتى يُمكّنَ لنا في الأرض بعد إذ نجّانا من القوم الظالمين، ويحقِّقَ لنا وعده بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

التفسير المادي للشريعة: نظرات نقدية

د. عمر النشيواتي (*)

تنامت في العقود الأخيرة نزعةٌ تُضيّق معاني الشريعة في إطار المنافع الدنيوية وحدها؛ فغدا كثيرٌ من الخطاب المعاصر يقدّم العبادات وصفاتٍ للصحة أو أدواتٍ للتنمية، بينما يتراجع جوهر التعبّد خطوةً إلى الوراء. ومع كثرة النوايا الحسنة في هذا الاتجاه، إلا أنّه يحمل في طياته انزياحًا خطيرًا عن مقصد الوحي الأول؛ فالشريعة التي جاءت لبعث الإيمان وإحياء القلوب لا تُختزل في مكاسب مادية أو منافع ظرفية، وهذه المقالة محاولة لإظهار هذا الخلل المنهجي، والدعوة إلى إعادة الاعتبار للمقاصد العليا التي بُني عليها الدين.

شهدت مباحث مقاصد الشريعة في العصر الحديث اهتمامًا واسعًا من قِبل الباحثين، حيث سعوا إلى إبراز ما في التشريع الإسلامي من مصالح ومنافع مادية واجتماعية، كما انتشر الاهتمام بما يُعرف بـ«الإعجاز العلمي والتشريعي في القرآن الكريم والسنة النبوية»، إضافة إلى مباحث الطب النبوي وغيرها، ولا شك أن هذا الاهتمام يعكس صدق الإيمان وحب الدين، ورغبة صادقة في نشر الإسلام وإظهار عظمته، وتعزيز ثقة المسلمين به، بل ودعوة غيرهم إليه؛ وهذه رسالة جليلة تستحق التشجيع.

ونحن إذ نؤكد على فضيلة مثل هذه الجهود ونحث المهتمين وغيرهم على مزيد من البحث والتأمل في صور الإعجاز في مختلف الميادين والمجالات؛ نرى أنه من الملاحظ مِن بعض مَن يهتم بالمقاصد الشرعية والإعجاز أنهم يحصرون أو يغلّبون مقصد الشعائر والشرائع في تهذيب السلوك والنفوس أو تحقيق منافع مادية أو اجتماعية، حتى غالى أصحاب هذا الاتجاه الذي يُحاول إعادة تفسير الشريعة من منظور مادي بحت، فآل به الحال إلى ربط الأحكام الشرعية بقضايا علمية تجريبية، أو منافع نفسية اجتماعية، أو حضارية تنموية،

(*) طبيب وكاتب مهتم بالقرآن وعلومه

وتجاهل أن الأصل فيها هو التعبّد لله تعالى الذي هو جوهر التشريع الإسلامي.

وعند تأمل مناهج الباحثين ومواقفهم في تناول قضايا المقاصد والإعجاز، يتجلّى لنا أن الاتجاهات في هذا الميدان يمكن جمعها في ثلاثة أصناف رئيسة:

١. الاتجاه العلمي التجريبي:

وهو الذي يسعى إلى ربط النصوص الشرعية بنتائج العلوم التجريبية؛ فيجعل الإعجاز العلمي أو الطبي هو الأساس في تفسير النصوص، كما يظهر في مؤلفات الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، هذا الاتجاه –رغم حسن مقصده– يميل إلى إخضاع النص الديني للمنهج التجريبي المادي، فيغيب عنه البعد التعبدي الغيبي الذي يقوم عليه الإيمان.

٢. الاتجاه النفسي والاجتماعي:

وهو الذي يحاول تفسير العبادات والشرائع على أنها وسائل لتحقيق التوازن النفسي والاجتماعي، وتهذيب السلوك، وتنمية الروابط الإنسانية، دون اعتبار لمقصد التعبد المحض أو إعطائه منزلته اللائقة... وهذا التوجه يستلهم كثيرًا من نظريات علم النفس والاجتماع المعاصر، لكنه أحيانًا يتجاوز حدود المقاصد الشرعية المقررة.

٣. الاتجاه الحضاري والتنموي:

يركّز هذا الاتجاه على ربط الشريعة بالمشروع الحضاري للأمة؛ فيرى أن جوهر الدين هو النهوض بالعمران البشري وتحقيق التنمية الشاملة، ويَغفَل عن أن مقصود العمارة في الشريعة هو عمارة القلوب بالإيمان وعمارة الأرض بطاعة الله تعالى وتحكيم شرعه وأمره.

لذا فإن هذه الاتجاهات بحاجة إلى ضوابط وكليات تحفظها من الإفراط والتفريط، وسأحاول في هذه المقالة جمع بعض الأمثلة الشائعة والمتكررة، وتعمدت ترك نسبة هذه الأقوال إلى أحد بعينه إذ القصد هو نقد الفكرة لا أصحابها، كما خلصت إلى ذكر بعض الضوابط والمعايير والتي يحسن بالقراء والباحثين استحضارها خلال مطالعاتهم ودراساتهم، لتبقى الجهود العلمية منضبطة ومثمرة، بعيدة عن التفسير المادي الضيق للشريعة.

> **الشريعة جاءت أولاً لإصلاح الدين والآخرة، وما يتبع ذلك من مصالح دنيوية إنما هو فرع وثمرة لا أصل ومقصد. فليس من الصواب أن تُجعل المصالح المادية هي الميزان الأوحد لفهم الدين أو تعليل أحكامه**

أمثلة شائعة لتغليب التفسير المادي للشريعة:

الطهارة:

يبالغ بعض الباحثين في تعليلهم للطهارة في المحل والبدن كشرط من شروط الصلاة فيجعل مقصدها هو مجرد الحفاظ على البيئة أو الصحة، ووقاية الجسد من الأوبئة والأمراض، وتنقيته من الجراثيم ونحوها! إلا أن المتتبع لنصوص الكتاب والسنة يتبين له جليًا أن مقصد الطهارة الأولي هو الامتثال للشرع بتحقيق شرط صحة الصلاة (لا تقبل صلاة بغير طهور)[١]، ثم يعود مقصود الطهارة إلى أمر معنوي روحي ألا وهو تكفير الذنوب ومحوها لتهيئة العبد للقيام بين يدي الله كما في الحديث: (الطهور شطر الايمان)[٢]، وقوله ﷺ: (مَن توضّأ فأحسنَ الوضوء خرجت خطاياه من جسده، حتى تخرجَ من تحت أظفاره)[٣]. قال ابن القيم: «بالوضوء يتطهر من الأوساخ ويقدم على ربه متطهرًا، والوضوء له ظاهر وباطن، فظاهره طهارة البدن وأعضاء العبادة، وباطنه وسره طهارة القلب من أوساخه وأدرانه بالتوبة، ولهذا يقرن سبحانه بين التوبة والطهارة في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]»[٤]؛ فليس مقصد الطهارة مجرد الحفاظ على البيئة أو الصحة والوقاية الجسدية، مع أن حصول تلك المنافع يحصل تبعًا، وهو مما جاءت به الشريعة وحثت عليه في الجملة، وليس هو مما يختلف حوله، لكن الخطأ أن يجعل هو المقصد الأول أو يُقتصر عليه.

(١) أخرجه مسلم (٢٢٤).
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣).
(٣) أخرجه مسلم (٢٤٥).
(٤) الكلام على مسألة السماع، ص (١١٧-١١٨).

كما أن عددًا من المعلومات الطبية الواردة في هذا الباب بحاجة لإثبات علمي على صحتها: فلا دليل علمي على أن تكرار المضمضة والاستنشاق يقي من الأمراض الإنتانية ونحوها، ودقة الأبحاث التي تربط بين الوضوء والاغتسال وأثرهما في الوقاية من السرطانات وغيرها بحاجة إلى تدقيق وتحرير، كما أن من الخطأ عدم التفريق بين الطهارة الشرعية وبين مفاهيم التنقية والتعقيم الطبي الحديث! إذ هي درجة من التنقية والنظافة لا تطلب شرعًا وليس هناك ما يدل على الحث عليها؛ أما الطهارة بإزالة النجاسة الظاهرة -ولو لم يتحقق القدر المطلوب من التعقيم بمفهومه الطبي الحديث- فهو مطلب وواجب شرعي وشرط لصحة الصلاة لا خلاف فيه.

الصلاة:

يحصر بعض الباحثين والكتّاب القصد من الحث على الصلاة وكثرة السجود وزيادة الخُطى إلى المساجد والمشي في الظُلَم إلى المساجد ونحوها، في التشجيع على بناء اللياقة البدنية وتقوية الجسد وزيادة الرشاقة، وتحسين القدرة القلبية والتنفسية وتحسين جهاز المناعة وتنظيم الأوقات، ونحوها من المنافع البدنية والمادية الدنيوية.

إلا أن المتتبع لنصوص الكتاب والسنة يتبين له جليًا أن مقصد الصلاة الأعظم وجوهرها ولبها هو إدامة اتصال القلب بالله، وذِكره سبحانه وتعظيمه، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. كذلك البكور والمشي في الظُلَم إلى المساجد، وكثرة المشي إليها، والحث على الإكثار من النوافل زيادة على الفرائض؛ مقصدها ظاهر في رفع الدرجات وتحصيل المزيد من الثواب، وبركتها هي معنوية روحية، وإن كان شيء من تلك المنافع المادية المذكورة يحصل تبعًا، وذلك من تمام النعمة والمنفعة لمن يلتزم بشرع الله وهدي نبيه ﷺ.

الصوم:

يبالغ بعض الباحثين في تعليلهم لعبادة الصوم أنها شُرعت لصحة البدن ووقايته من الأمراض والسرطانات والقضاء على السموم والقضاء على الكوليسترول الضار وتعزيز الصحة النفسية، ونحوها من المنافع، إلا أن الصوم إنما شرع لزيادة التقوى ورفعة الدرجات، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ومن مقاصده: تزكية النفس وتطهيرها من سيئ الأخلاق ورذائل الصفات؛ وذلك أن الصائم حال تلبّسه بهذه العبادة يدرب نفسه على محاسن الأخلاق، والبعد عن قول الزور والفحش واللغو والرفث، كما قال ﷺ: (الصيام جُنة، فلا يرفث ولا يجهَل)[1]، أي وقاية وحصن حصين من المعاصي والآثام في الدنيا، ومن النار في الآخرة، وغيرها من المقاصد والمنافع الدينية والأخلاقية، وما يتناقله أصحاب هذه المدرسة المادية من حديث: «صوموا تصحوا» فهو ضعيف لا يثبت، وإن كان شي من تلك المنافع المادية يحصل تبعًا لا أصلاً، وذلك من تمام الرحمة والخير لمن يلتزم بشرع الله وهدي نبيه ﷺ.

الزكاة والصدقة:

غاية الزكاة ومقصدها الأول هو طاعة الله ورسوله ﷺ، وتطهير نفس المزكّي، وتربية القلب على مراقبة الله وحبّ الخير للناس، والتخلص من أمراض الشحّ والحرص ومحبة الدنيا، وجميعها مضرة بالقلب وجدانيًا، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

كما أن من مقاصدها الاجتماعية والاقتصادية: إغناء الفقراء والمساكين، وسد حاجتهم، وتحقيق التنمية الاقتصادية في المجتمع، والعدالة والرفاهية. فمقصدها الأولي هو تزكية النفس قبل أن تكون هدفًا للتنمية الاقتصادية المادية، مع حصول تلك المنافع الدنيوية تبعًا كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

يخطئ من يجعل المقصد من التفكر في النفس والكون: مجرّد عمارة الدنيا وتطويرها والنهوض بالأمة بالعلم والمعرفة المترتبة عليه، بعيدًا عن مقصد زيادة اليقين والإيمان بالله تعالى

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٤).

ضوابط عامة في مباحث الإعجاز والمقاصد

١ ضبط تفسير النصوص الشرعية بمقاصد الشريعة الكبرى، وعلى رأسها حفظ الدين

٢ المقصد الأصلي للتشريع صلاح الدين والآخرة، وقد يترتب على هذه التشريعات مصالح دنيوية تابعة، مادية أو نفسية واجتماعية

٣ ينبغي التفريق بين درجة المقاصد الأصلية التي نصت عليها الشريعة، ودرجة المقاصد التي لم تحث عليها ولم تمنعها، فهي من المباحات

٤ بُعث الرسل لتحقيق صلاح الأديان وإصلاح الآخرة ابتداء، وذلك لا يمنع من وجود منافع دنيوية

٥ ليس المقصود التزهيد في المصالح الدنيوية، بل التحذير من رفع المصالح الدنيوية فوق منزلتها

٦ الأصل في إقناع الناس بالالتزام بالأوامر الشرعية الجانب التعبدي، أما الإعجاز العلمي فهو مفيد في زيادة اليقين لكنه ليس الأصل، ولا يصح الاكتفاء به

التفكر في النفس والكون:

يبالغ بعض الكتّاب فيجعل الوحي هو الأصل المؤسس للمنهج العلمي التجريبي في الحضارة الإسلامية، ويدّعون أن القرآن والسنة شكّلا الإطار المعرفي الذي انطلقت منه جميع العلوم الطبيعية، وربما استند بعضهم إلى آيات قرآنية تدعو إلى التفكر في الكون، ليثبت أن التفكير العلمي الإسلامي نابع من التوجيهات الربانية، إلا أن هذا الربط رغم ما فيه من رؤية إيمانية متماسكة وقوة في إبراز البعد الديني للعلم في الإسلام؛ إلا أن فيه عددًا من الإشكالات المنهجية والتاريخية، فالوحي في حقيقته يوجّه الإنسان إلى التفكير والتأمل ولا يقدّم أدوات أو خطوات تجريبية محددة، والمسلمون طوّروا علومهم الطبيعية عبر الملاحظة والخبرة والتجربة والتفاعل مع تراث الحضارات السابقة (اليونانية، الفارسية، الهندية)، لا بمجرد الاستنباط من النصوص الشرعية.

كما أن في هذا الطرح خلطًا بين الإلهام القيمي والمنهج العلمي؛ فالوحي ألهم المسلمين قيمًا مثل احترام العقل، ونبذ الخرافة، والسعي وراء المعرفة النافعة، وهي قيم ساعدت على ازدهار العلم، لكن المنهج التجريبي نفسه نتاج جهد إنساني لا وحي مباشر.

كذلك يخطئ من يجعل المقصد من التفكر في النفس والكون هو مجرّد عمارة الدنيا وتطويرها والنهوض بالأمة بالعلم والمعرفة المترتبة عليه، بعيدًا عن مقصد زيادة اليقين والإيمان بالله تعالى؛ حيث تكرر الحث في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ على التفكر في النفس والكون، ومقاصد ذلك ومنافعه متعددة تشمل: تعظيم الله وإدراك عظمته وقدرته، وزيادة الإيمان واليقين، ومعرفة صفات الخالق وحكمته، وفهم الغاية من وجود الإنسان واستخلافه، وذلك هو الهدف الأعظم والمقصد الأولي.

ضوابط عامة في مباحث الإعجاز والمقاصد:

من هنا وعلى ضوء ما سبق من أمثلة فإننا نخلص إلى هذه الضوابط والملاحظات لمن يبحث في أبواب المقاصد الشرعية والإعجاز الطبي والتشريعي ونحوه:

- أن تفسير النصوص الشرعية ينبغي أن يكون منضبطًا بمقاصد الشريعة الكبرى، وعلى رأسها حفظ الدين وإصلاح الآخرة.
- ضرورة التفريق بين المقصد الأصلي للتشريع -وهو صلاح الدين والآخرة- وبين المقاصد التابعة، وهي ما قد يترتب على تلك التشريعات من مصالح دنيوية مادية أو نفسية واجتماعية.

* أهمية التفريق بين درجات متفاوتة وأشكال متباينة من المقاصد الشرعية:

» فمقصد الشريعة في حفظ النفس من حيث الأصل هو في إبقائها والمنع من التعدّي عليها بما يهلكها ووقايتها من الفساد والهلاك، وهذا واضح ومستفيض ولا جدال حوله، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

» أما حفظ النفس بمعنى الترقي بها في مفاهيم الصحة التجميلية وكمالات العناية والرعاية الطبية الفائقة فهذا لا دليل على وجوبه، ولم تأت الشريعة بالحث أو المنع منه والله أعلم، بل هو متروك للفطر السوية، وهو من المباحات التي لا يمدح ولا يذم فاعلها ابتداء إلا باعتبار النية والاحتساب ونحوه.

* التأكيد على أن الرسل بُعثوا لتحقيق صلاح الأديان وإصلاح الآخرة ابتداءً، وما ينتج عن الالتزام بالشريعة من منافع دنيوية فهو فرع ثانوي تابع.

* ليس المقصود إنكار المصالح الدنيوية أو التزهيد فيها، بل بيان لتفاوت المراتب، والتحذير من رفع المصالح الدنيوية المادية فوق منزلتها الشرعية.

فمن الأولى ألّا يُجعل بحث وجوه الإعجاز التشريعي والطبي أصلاً لإثبات صدق الوحي والنبوة؛ فالإيمان بالله ورسله لا ينبغي أن يقوم على مشاهدات علمية تجريبية فحسب؛ حتى لا يكون في ذلك مشابهة لبني إسرائيل الذين لم يؤمنوا إلا بما يشاهدونه حسيًا حينما قالوا لموسى عليه السلام: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]؛ فالإيمان بالله ورسله في أساسه إنما هو تصديق بالغيب، وإنما يهدف بحث وجوه الإعجاز التشريعي والطبي إلى زيادة اليقين بالوحي، وذلك كما سأل إبراهيمُ عليه السلام ربَّه أن يريه كيف يحي الموتى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

* الاعتماد على الإعجاز العلمي لإقناع الناس بالالتزام بالأوامر الشرعية على ما فيه من منافع ومكاسب إلا أن فيه مخاطر ينبغي التنبّه لها، منها:

١. إضعاف جانب التعبد والتسليم المطلق لأمر الله والإيمان بالغيب والتي هي صفة أهل الإيمان والتقوى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢-٣].

٢. تعليق القلوب بالدنيا وإغفال الآخرة وهي صفة الذين لا يعلمون، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦-٧].

٣. خطورة تبنّي نظرية أو معلومة يظهر عدم صحتها أو خطؤها لاحقًا؛ مما يشكّك في الأصل الذي بُني عليها عند ثبوت خطأ بعض النظريات العلمية التي رُبطت بالدين.

منهج الأئمة في المقاصد: جعلُ حفظ الدين والعبودية لله أصلاً تُردّ إليه سائر المصالح، بينما اتجهت القراءات المادية المعاصرة إلى تقديم المنفعة الدنيوية! حتى غدا الدين عند بعضهم أداةً للمنفعة لا طريقًا للتعبّد؛ وفي ذلك انحراف واضح عن المنهج القويم الذي قرّره الأئمة

مقارنة بين التفسير المادي المعاصر ومنهج الأئمة في المقاصد:

إن المتتبع والقارئ للتراث الإسلامي يتجلى له الفارق المنهجي بين تفسير المقاصد في التراث الإسلامي وبين التوجهات الحديثة؛ فالمقاصد عند الجويني والغزالي مثلاً تدور على تحقيق العبودية لله وحفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وحفظ الدين أصلٌ، وسائر المصالح تابعة له. والشاطبي كذلك نصّ في عدة مواطن من كتبه أن العبادات مقصودة للتعبد والتذلل لله لا لتعليل عقلي مباشر، فالعبادات غير معقولة المعنى في الأصل، وإنما المقصود بها الامتثال، أما في الاتجاه الحديث فقد صار بعضهم يجعل المصلحة الدنيوية مناط الفهم والتأويل، حتى صار الدين وسيلة إلى «المنفعة» لا غاية تعبّدية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكثير من الناس يقصر نظره عن معرفة ما يحبه الله ورسوله، من مصالح القلوب ومفاسدها، وما ينفعها من حقائق

الإيمان وما يضرها من الغفلة والشهوة... فتجد كثيرًا من هؤلاء في كثير من الأحكام لا يرى من المصالح والمفاسد إلا ما عاد لمصلحة المال والبدن، وغاية كثير منهم إذا تعدى ذلك أن ينظر إلى سياسة النفس وتهذيب الأخلاق، بمبلغهم من العلم... وقوم من الخائضين في أصول الفقه وتعليل الأحكام الشرعية بالأوصاف المناسبة إذا تكلّموا في المناسبة وأن ترتيب الشارع للأحكام بالأوصاف المناسبة يتضمن تحصيل مصالح العباد ودفع مضارهم، ورأوا أن المصلحة نوعان: أخروية ودنيوية؛ جعلوا الأخروية ما في سياسة النفس وتهذيب الأخلاق من الحِكم، وجعلوا الدنيوية ما تضمن حفظ الدماء والأموال والفروج والعقول والدين الظاهر، وأعرضوا عما في العبادات الباطنة والظاهرة من أنواع المعارف بالله وملائكته وكتبه ورسله وأحوال القلوب وأعمالها، كمحبة الله وخشيته وإخلاص الدين له، والتوكل عليه والرجاء لرحمته ودعائه، وغير ذلك من أنواع المصالح في الدنيا والآخرة، وكذلك فيما شرعه الشارع من الوفاء بالعهود وصلة الأرحام، وحقوق المماليك والجيران وحقوق المسلمين بعضهم على بعض، وغير ذلك من أنواع ما أمر به ونهى عنه: حفظًا للأحوال السنية وتهذيب الأخلاق، ويتبين أن هذا جزء من أجزاء ما جاءت به الشريعة من المصالح»[1].

وبهذه التعبيرات وغيرها يتضح عمق التحول المنهجي بين المدرستين، ويُبرز الحاجة إلى العودة للتوازن المقاصدي الأصيل، خاصة وأن كثيرًا من الخطاب الدعوي والإعلامي المعاصر تبنّى التفسير المادي للشريعة رغبة في تقريب الدين إلى الجمهور العصري، فصار التركيز على أن: الصلاة «رياضة للجسد»، والصوم «نظام غذائي»، والزكاة «إصلاح اقتصادي»، والحج «مؤتمر دولي»... ولا شك أن هذه المقاربات قد تكون نافعة في باب الترغيب والتوضيح، لكنها تصبح خطيرة عندما تغيب عن وعي المتلقي حقيقة التعبد لله تعالى، فينشأ جيل يربط الإيمان بالمصلحة المادية فقط، فإذا لم تتحقق دخله الشك في دينه! ومن أوجه علاج ذلك:

١. ترسيخ مفهوم التوحيد والمقصد من التشريع في النفوس، وعند الحديث عن عمارة الأرض فهذه العمارة ليست مستقلة، بل هي جزء من عبادة الله تعالى.

٢. التربية الوجدانية على معنى التعبّد وتصحيح النية.

٣. تصحيح الخطاب الدعوي، وتصميم المناهج التعليمية وفق المنهج الصحيح.

٤. نقد الإعلام المعاصر وما فيه من تركيز على المادية والمنفعة.

المبالغة في ربط العبادات بالمنافع المادية الدنيوية يفضي إلى إضعاف جوانب التعبّد وتهميش البعد الروحي للشريعة. والمطلوب أن يُعاد توجيه الخطاب الدعوي نحو تعميق الإيمان بالغيب والآخرة، مع إبراز المنافع الدنيوية على أنها فضل زائد وتابع للأصل لا أصل المقصود وأهم المراد

وختامًا:

فإنه يتبين مما سبق أن تغليب التفسير المادي للشريعة -وإن انطلق من نوايا حسنة- يحمل مخاطر عدة إذا لم يُضبط بضوابط المقاصد الكبرى، فالشريعة جاءت أولاً لإصلاح الدين والآخرة، وما يتبع ذلك من مصالح دنيوية إنما هو فرع وثمرة لا أصل ومقصد، لذلك فإن الواجب على الباحثين والمهتمين بمباحث الإعجاز العلمي والتشريعي أن يوازنوا بين الجانبين، فيُظهروا إعجاز الشريعة ومنافعها، لكن دون أن يجعلوا المصالح الدنيوية هي الميزان الأوحد لفهم الدين، كما أن المبالغة في ربط العبادات بالمنافع المادية الدنيوية تفضي إلى إضعاف جوانب التعبد وتهميش البعد الروحي للشريعة وتعريض مَن تعلق بتلك المنافع للتشكيك في الدين عند غياب تلك المنافع! فالمطلوب أن يُعاد توجيه الخطاب الدعوي نحو تعميق الإيمان بالغيب والآخرة، مع الإشارة إلى المنافع الدنيوية على أنها فضل زائد وتابع للأصل لا أصل المقصود وأهم المراد، كما ينبغي الاهتمام بالتربية الوجدانية والإيمانية على معنى التعبّد ومداومة تصحيح النية، وتصميم المناهج التعليمية وفق المنهج الصحيح، بالإضافة إلى نقد الإعلام المعاصر وما فيه من تركيز على المادية والمنفعة، والله الموفق.

(١) مجموع الفتاوى (٣٢/٢٣٣-٢٣٤).

كيف أُنتج النظام السياسي في سوريا خلال قرن؟ دروس وعِبر

أ. محمد أحمد الخطيب (*)

تسعى المقالة إلى بيان كيفية تشكّل (النظام السياسي) في سوريا خلال قرنٍ كامل، بوصفه نظامًا وظيفيًا مندمجًا في المنظومة الدولية أكثر من كونه تعبيرًا عن إرادة المجتمع السوري. وذلك عبر تتبّع الأرضيات التي وضعتها قوى الانتداب كي تفرز النظام لا سيما بعد الاستقلال، وطريقةَ إدارة المجتمع والحدودِ والموارد وفق متطلبات القوى الدولية، ما يشير إلى دروسٍ وقائيةٍ للأجيال القادمة.

مدخل:

كثرةٌ منّا يظن أنّ الغرب يقرُّ بسوريا أرضًا عربية مسلمة تاريخيًا، وأنّ السُنّة هم أصحابها أصلاً أو الأحقُ بها. والحقيقة أنهم لم يقبلوا بهذا يومًا منذ معركة اليرموك إلى عهد سايكس-بيكو ثم دول الطوائف في الساحل والجنوب والشرق؛ ولأجل ذلك كانت الحملات الصليبية وحملة نابليون ثم الاستعمار، ولم يرحلوا بجيوشهم إلا وقد فصلوا كيانًا لبنانيًا، ونصّبوا الطائفيين ولاةً على سوريا ولبنان، وانتزعوا فلسطين.

هذا التصور الغربي ما يزال هدفًا ماثلاً أمامهم، وإن تطور –بعد الاستقلال– إلى إنتاج نظامٍ بمواصفات دوليةٍ ليخدم المفهوم الذي يُبقي سيادة الشام الفعلية بيد الغرب، ولكن هذه المرة من خلال توكيل وصُنع دولةٍ بمواصفات «نظام» له محددات ومدخلات ومخرجات وتفاهمات دولية، ولو كانت مشاكسة ظاهريًا. إنّ هذا النظام في خطوطه العريضة لم يكن يومًا محلّ خلافٍ حاسم بين الروس ورثة الصقالبة وبين باقي ورثة الإمبراطورية الرومانية، ولا مع

(*) متخصص في الحضارات والعلاقات الدولية.

فرنجة باريس؛ حيث نهلَ منظّروا القوميين الذين أتوا ببلاء البعث، ولا مع لندن حيث مكث حافظ أسد في ربيع ١٩٦٥م شهرًا -بحجّة العلاج- كي يفاوض ويفهم الدور والحدود المطلوبة للزعامة وثمنها الذي تجلّى بتسليم الجولان، ليعود ويخطط لانقلابه على القيادة التاريخية للبعث عام ١٩٦٦م ثم ينقلب لاحقًا على جماعة «صلاح جديد» أعوانه في الانقلاب، وينقل الدولة وبيئة النظام إلى حالة أكثر عمالة مما فعله من قبله الانقلابيون وبقايا جيش المشرق الفرنسي، كحسني الزعيم والحناوي وجديد، بعدما أدّوا الغرض في مرحلة ضعضعة الهوية الإسلامية، ومحاولة استبدال الشخصية البعثية بها والتي فتحت الباب للطوائف ليتسنَّموا الدولة والجيش على يد الأرسوزي وعفلق والبيطار وأكرم حوراني وبقية الانقلابيين.

> **نظر الغرب إلى الشام بوصفها إقليمًا تابعًا للإرث الروماني خرج عن السيطرة منذ اليرموك، فظلّ مشروع استعادته حاضرًا، وإن تبدلت وسائله من الاحتلال العسكري إلى إنتاج أنظمة محلية بالوكالة**

جيوش الروم في اليرموك: هل اصطفاف النظام الغربي صورةٌ أخرى له اليوم؟

تكوّن جيش الروم من (٥) جيوش، حيث قاد (ماهان) الأرمن، و(قناطير) السلاف والصقالبة (الروس والصرب)، وعلى الغساسنة المسيحيين ملكهم جبلة بن الأيهم، والجيوش البيزنطية والكاثوليكية تحت قيادة غريغوري ودريجان وتيودوروس شقيق هرقل.

وحينها قُتل وأسر عشرات الألوف من الروم يوم «نهر الدم». يقول ابن الأثير: «أدرب هرقل نحو القسطنطينية والتفت إلى الشام فقال: السلام عليك يا سورية، سلامٌ لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومي أبدًا إلا خائفًا»[١]. وبقيت صورةٌ أخرى حاضرةً في عقول المستشرقين تنقم على خالد والمسلمين بسبب يوم نهر الدم[٢].

الصورة التي اصطفت فيها جيوش أوروبا، وهزيمتهم وغرقهم في نهر اليرموك، عادت لثأر جديد تسترد من خلاله أوروبا السيطرة على الشام تجلّى في دخول غورو دمشق ومقولته: «ها قد عدنا»[٣]. لكنّ هذه الصورة تطورت إلى (نظام) أعقد يدير البلاد تحت تصميم وظلال الغرب وبمواصفاتٍ عليا للنظام في دمشق. شيءٌ أعقد بكثير من نظام جبلة الغساني عامل الروم على الشام؛ لذا كان لا بدّ من تقصيه، واستقراء بنيانه وما يعني نمطه الدولي للجيل.

فكيف أُنتجت أرضيات «النظام السياسي» وبيئته دوليًا؟

جيش المشرق/ أرضية مستقبل النظام السياسي في سوريا:

أنشأت فرنسا ما عرف بـ «جيش المشرق» وهو القوات الفرنسية التي أرسلت إلى بلاد الشام عقب الحرب العالمية، وقد شكل العمود الفقري الذي اعتمدت عليه فرنسا في إدارة سوريا، وجندت فيه أعدادًا كبيرة من الأقليات السورية واللبنانية في مجموعتين رئيسيتين: «الجوقة السورية والقناصة اللبنانية»، و«الحرس الخاص».

واتّبعت فرنسا سياسة «فرّق تسد» في تشكيل الفرق العسكرية، واستبعدت غالب العرب السُنّة في البداية من القوات الخاصة –الجزء الأهم من جيش المشرق– والتي تألفت من العلويين والدروز والمسيحيين فالكرد والشركس والأفارقة. و«أثبتت هذه الفرق الطائفية أنها أقدر من القوات الفرنسية على إخماد الثورات وقمع المظاهرات»[٤]، وفي الفترة ١٩٢٦-١٩٣٩م، ضمّ جيش المشرق حوالي ١١ ألف جندي محلي.

وذهب لونغريغ وألبرت حوراني وفيليب خوري إلى أن فرنسا أنشأت جيشًا طائفيًا لضرب المقاومة السنّيّة، وذلك بتجنيد الأقليات من الأرمن والموارنة خلال الفترة ١٩١٦-١٩٢٠م، وقد بدأ هذا الجيش عمله في فلسطين ولبنان، ثمّ جنّدت النصيريين والدروز والإسماعيليين والأكراد والشراكسة خلال ١٩٢١-١٩٢٧م، واستخدمتهم في قمع الثورات في سورية.

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير (٣٢٤/٢).
(٢) ينظر: الصديق أبو بكر، لمحمد حسين هيكل، ص (٢١٣-٢١٤).
(٣) خط الرمال، لجيمس بار، ص (١٢٣): بعنوان (الصليبي) نعتًا لـ(غورو).
(٤) الجيش والسياسة في سورية (١٩١٨-٢٠٠٠م)، للدكتور بشير زين العابدين، ص (٩٠).

في عام ١٩٣٢م أُسست الأكاديمية العسكرية في حمص، وكان أكثر خريجيها من الضباط السنة والنصارى، مع المحافظة على نسبٍ محددة وزيادة عددية من أبناء الطوائف، أشارَ إلى هذا التغير الضابط أحمد عبد الكريم في مذكراته. تبنّت فرنسا في مرحلةٍ سياسيةٍ مدروسةٍ تجنيدَ بعض السنّة لكسب الشرعية في محاولتها وضع أسس الجمهورية الحديثة بصورة تكفل المصالح الفرنسية عقب الاستقلال، ووجدت فرنسا في صفوف السنة من العوائل الأرستقراطية وأبناء الريف مَن يمكن أن يتعامل معها طمعًا في تحقيق المصالح وتحسين الدخل، وكان هؤلاء يتبوؤون المناصب ويضعهم الفرنسيون في واجهة المؤسسة العسكرية في مرحلة اتخاذ القرار. ولكن ولاء الضباط السنة لم يكن مضمونًا دومًا، وتم في فترة ١٩٤٣-١٩٤٤م تسريح أعدادٍ منهم بسبب تمردهم ورفضهم ضرب الثورة سنة ١٩٤٤م.

فيما ذهب المؤرخ (بوناكلي) إلى أنّ سياسة فرنسا لم تكن طائفية بقدر ما أنها هدفت إلى تجنيد العناصر الموالية لفرنسا[١].

مصير قوات الشرق الخاصة/ بلاء الجيش والسياسة وانقلابات سوريا:

يقول مصطفى الشهابي في كتابه (محاضرات في الاستعمار): «بلغ قوام المجندين السوريين ٢٥ ألفًا ضمن جيش المشرق الفرنسي بنهاية الانتداب؛ ما أثّر بعد الاستقلال في شكل الجيش السوري الوليد -الذي قام على ضم قوات جيش المشرق من السوريين إليه- ومسيرته وكثرة الانقلابات العسكرية، وما آل إليه من استيلاء آل الأسد على السلطة»[٢].

وقد كان بالفعل بعض هؤلاء الضباط السنّة بالمواصفات الفرنسية أصل البلاء، وأداموا الانقلابات بعد الاستقلال، وأضعفوا البلاد لصالح الأقليات، كأمثال الزعيم والحناوي والشيشكلي وأمين الحافظ والشهابي.

«بعد الاستقلال دارت خلافاتٌ بين الكتل السياسية حول قبول العساكر الذين وصفوا بـ«الخونة»، ولكن في النهاية تم ضمهم للمؤسسة العسكرية الوليدة، وعلّق المؤرخ كمال ديب على مرحلة ما بعد الاستقلال: «لقد كانت غلطة تاريخية ارتكبتها العائلات السُنية المدنية والتجارية والملاكين في الأرياف؛ إذ إن تعاليهم عن دخول الجيش واحتقارهم لمهنة العسكرية جعلا أعداءهم أصحاب نفوذ وسلطة في القوات المسلحة»[٣]. ونُقلت مقولة القوتلي: «عفا الله عما سلف» في شأن ضم الضابط الكبير في جيش المشرق حسني الزعيم ومن معه في الجيش السوري الوليد، والذي انقض على القوتلي والرئاسة.

تشكّل نواة (الجيش السوري) من القوات الخاصة للشرق أغسطس ١٩٤٥م:

«أسست سلطة الانتداب الفرنسي كيانًا مدنيًا ضعيفًا في مواجهة مؤسسة عسكرية تخضع لقيادتها، ولما جَلَت القوات الفرنسية عن سورية بقي جهاز الحكم المدني ضعيفًا، ويمكن القول بأن ضباط الجيش السوري المنعتقين من القوات الخاصة للشرق لم يكونوا مستعدين للاستحقاقات الديمقراطية وتبعاتها، ولذلك فقد أزعجهم مناقشة البرلمان لقضايا الجيش، فبادروا بتوجيه خطاب إنذار لرئيس الجمهورية على النمط الفرنسي»[٤].

وقد لخص (خالد العظم) الأمر بقوله: «أعتبر نفسي أحد المسؤولين عمّا جرى في سورية ١٩٤٣-١٩٥٨م، ولا أنكر تحملي قسمًا من الوزر فيما فقدته بلادي من السيادة والاستقلال، لكن المسؤول الأول هو الجيش الذي سيطر على سلطات البلاد»[٥].

> **لم يكن جيش المشرق الفرنسي سوى البذرة الصلبة لدولة ما بعد الاستقلال؛ إذ حمل في بنيته تمييزًا طائفيًا وولاءً خارجيًا، فغدا أداةً حاسمة في مواجهة مجتمعٍ مدنيٍّ ضعيف، ومهّد بنيويًا لمسار الانقلابات وترسّخ القبضة الأمنية**

(١) الجيش والسياسة في سورية، ص (٩٧-١٠٠) باختصار.
(٢) مقالة: «جيش المشرق، بذرة لهيمنة العلويين على سوريا»، محمد شعبان أيوب، موقع الجزيرة.
(٣) مقالة: تطور المجتمع السوري بين ١٨٣٠ و٢٠١١م، مصطفى عباس، موقع تلفزيون سوريا.
(٤) الجيش والسياسة في سورية، ص (١٣٧).
(٥) المرجع السابق، خاتمة الكتاب.

تطور الدور الدولي (الأمريكي- الروسي- الغربي) في تشكل النظام من ١٩٤٥م وحتى الأسدين:

بداية الدور الأمريكي الفاعل:

«كانت الأوضاع السورية مهيأة لتقبل الوجود الأمريكي، ففي لقاء جمع الرئيس السوري شكري القوتلي بوفد من الكونجرس الأمريكي في أكتوبر ١٩٤٥م أوضح القوتلي بأنه: لا توجد دولة ترغب سورية في الوصول إلى التعاون معها أكثر من أمريكا»[١].

«ومن طرفه بادر حسني الزعيم باستغلال هذه الفرصة لتوثيق علاقته بالضباط الأمريكيين، ولم يكن من قبيل المصادفة أن تورد الوثائق الأمريكية أسماء هؤلاء الضباط في مرحلة ما بعد الانقلاب بصورة متكررة، وخاصة الميجور ميد الذي أصبح يتمتع بثقة الزعيم. لقد دفعت هذه المعطيات إلى الاعتقاد بأن الاستخبارات الأمريكية كانت وراء التخطيط لانقلاب الزعيم»[٢]، حيث دعم هذه النظرية مايلز كوبلاند نائب القنصل الأمريكي في سورية ١٩٤٩م في كتابه: (لعبة الأمم) والذي سرد فيه تفاصيل العلاقة[٣].

السوفييت في سوريا في عهد الوحدة الناصرية:

ثم «تولّى وزير الدفاع خالد العظم المفاوضات مع السوفييت سنة ١٩٥٧م، إذ قاموا بشحن كمية كبيرة من الأسلحة والطائرات، وأعلن السوفييت عن قرضٍ استثماري بقيمة ٤٠٠ مليون ليرة»[٤].

وننوه إلى أنّ العلاقة مع السوفييت تأطّرت من خلال الناصريين، ونتيجة للخطاب البعثي الاشتراكي نمت العلاقات مع السوفييت رغم الخلفية الفرنسية لغالب الضباط؛ ما أسهم في إنتاج خطابٍ مناهض للإمبريالية -توكأ عليه الأسد- يوحي بالتخندق ضد أمريكا في حرب ال ٦٧ كغطاءٍ شعبيٍ لتغطية الفساد.

صعود الوكيل الدولي الأعقد حافظ أسد:

لم يكن حافظ شخصًا عادي المهارات والتخطيط والمكائد مقارنةً بمن سبقوه منذ الاستقلال، بل كان أكثر جرأةً من غيره في المجازفة بالتصفيات والصفقات، كتسليم الجولان نظير استحقاق العرش ومعه الدعم الدولي غير العلني بكل الطرق ليصعد ويثبّت كرسيه.

وبعد عودته من لندن ١٩٦٥م، وتولّيه وزارة الحربية صار أشدّ شراسةً، وراح يصفي منافسيه، واستبقى بعض رفاق البعث مثل خدّام والأحمر والكسم والزعبي والشرع من المدنيين كواجهة سنيةٍ ليواصلوا نغمة شعارات البعث وبرامجه، إلى جانب شركاء الانقلاب وعملاء الغرب كطلاس والشهابي، والزمرة العلوية كدوبا وعلي حيدر ورفعت وأصلان، واستبقى بعض مصطلحات الإمبريالية والتصدي والشبيبة وطلائع البعث للتغطية.

أمّا عموم السُنّة فبقي يفرِّقهم «بالمناطقية» والمصالح، وشجع على انتقال «الأقليات» للمدن، كما استهدف شيوخ السنّة الكرد، فنجح مع كفتارو والبوطي، وطارد أو استمال آخرين من شيوخ السنة، إلا أنّ قوته لم تكن مطلقةً، وكانت الثغرات والعداوات وسخط الناس يحيطه.

أدرك (حافظ) -وقد انعزل عن قيادة البعث التاريخية وجماعة جديد وحاطوم- أنّه لا يمكن أن يستغني عن دعم جزءٍ فاعل من السُنّة لا سيما بعض عوائل وكبار تجار دمشق وحلب، ولم تخْلُ سياسته من المصانعة وشراء الوقت كما فعل في (أحداث الدستور) مطلع ١٩٧٣م التي قادها الشيوخ كحبنكة وحديد. وفي ظلّ ذلك صار يتحين الفرصة ليعلن عمليًا ديكتاتوريته المطلقة إثر حرب أكتوبر ١٩٧٣م التي وُصفت بحرب التحريك -تبادل الأراضي وتثبيت خطوط النار- فقد استخدم دعايتها لردّ الاعتبار بتحرير القنيطرة، ليقدم نفسه قائدًا خالدًا، بينما خسرت سوريا قرى استراتيجية ومنابع مياه.

تمكُّن حافظ وبدء مرحلة وأد المجتمع/ زيارة نيكسون والاعتماد الدولي:

أصبح حافظ بنهاية ١٩٧٣م من القوة بحيث لم يعد محتاجًا لمهادنة المجتمع، ثم زار نيكسون وزوجه دمشق عام ١٩٧٤م بعد تفاهمات كيسنجر مع حافظ والشهابي بخصوص العلاقة مع الكيان

(١) الجيش والسياسة في سورية، ص (١٥٥).
(٢) المرجع السابق، ص (١٥٩).
(٣) لعبة الأمم، لمايلز كوبلاند، ص (٧٣) وما بعدها.
(٤) الجيش والسياسة، ص (٢٧٧).

المحتل وغيرها، وكانت زيارته زيارةَ تنصيبٍ واعتمادٍ ورعايةٍ تخللتها جلسات بين العائلتين، وطاف الموكب شوارع دمشق، تبع ذلك تفاهمات ميرفي-الأسدين ١٩٧٦، ١٩٨٨، ٢٠٠٣م، ومثّلت الأولى صفقة احتلال لبنان وظيفيًا مقابل الجولان، واستمر التعاون كما يظهر في مكالمة ريغان-حافظ ١٩٨٥م التي سربتها النيويورك بوست حول الوضع في لبنان[١].

دعم العالم للنظام ماليًا:

«تبنى حافظ سياسة تحجيم الفصائل الفلسطينية، والحد من النفوذ العراقي، وحظيت سياسته بدعمٍ غربي، فحصل عام ١٩٧٦م على قروضٍ بقيمةٍ ٥٤٠ مليون دولار، وفي الوقت ذاته كانت المساعدات الأمريكية تتدفق بمعدل ٦٠-١٠٠ مليون دولار سنويًا، كما قدّم الخليج ٥٠٠ مليون دولار لدعم قواته في لبنان، فيما أبقى الأسد على تعاونه مع السوفييت، وبلغت ديونه لموسكو في الثمانينيات ١٢ مليار دولار. كما أرسل حافظ فرقة من الجيش للمشاركة في التحالف الدولي في حرب الخليج ١٩٩١م، وتؤكد مصادر «الخارجية الأمريكية» أنّ هذا جلب لخزينته ٥٠٠ مليون دولار سنويًا طوال التسعينيات، وتعهد الخليج بمنحه ٢ مليار دولار في مارس ١٩٩١م»[٢].

محطات علاقات سوريا بأمريكا والغرب والسوفييت منذ الاستقلال:

- دارت سوريا في فلك أمريكا أكثر من السوفييت، ولم تصطدم موسكو وواشنطن هناك، واكتفيا بالانقلابات بالوكالة، ثم استقرّا لاحقًا على التحاصص والمنافسة في عهد حافظ، في ظل خطورة تبعات الصدام على تل أبيب، ووجود ضمان للكيان من موسكو وواشنطن.
- التغلغل الأمريكي سابق على السوفييتي، وكان حسني الزعيم وآخرون غيره في شتى المفاصل، ناهيك عن بعض العوائل الثرية والسياسية التي فرّخت قيادات داخل البعثيين وخارجهم، فضلاً عن طبقة الماسونيين التجار الذين بقوا إلى يومنا هذا؛ فمن المؤطَرين بالماسونية رؤساء حكومات كأحمد نامي وحقّي العظم وفارس خوري ولطفي الحفار وعطا الأيوبي وسعيد الغزي والأُلشي والشيشكلي والزعيم[٣].
- جاء انقلاب البعث ١٩٦٣م بملامح سوفييتية ثم وقع انقلاب ١٩٦٦م لجماعة صلاح جديد على أمين الحافظ والقيادة التاريخية للبعث، «دار صراعٌ بين فريقي جديد والأسد، وانحاز السفير السوفييتي موخيتدينوف لصلاح، فغضب الأسد وأرسل طلاس إلى الصين للحصول على الأسلحة»[٤].
- تحرك جناح الأسد في البعث الأقرب للغرب ومعه الماسوني حكمت الشهابي وطلاس ودوبا وحيدر وأصلان وخدام، فتمّت الإطاحة بصلاح جديد ورفاقه عام ١٩٧٠م.
- بدأت زيارات كيسنجر فنيكسون لدمشق عام ١٩٧٤م لتثبيت أمن إسرائيل وترسيخ العلاقات، وبالتالي تنصيب واعتماد أسد دوليًا. وتبعتها جائزة تفاهمات حافظ-ميرفي ١٩٧٦م الوظيفية لاحتلال لبنان بدعم أمريكي-عربي وضرب الحركات الفلسطينية وترتيب لبنان أمنيًا، وكان ذلك ضد مصالح السوفييت[٥].
- استأنف الماسونيون تجارتهم وتأثيرهم بعد انقلاب حافظ وساعدوه في إنهاء إضرابات التجار والإسلاميين، ففي مطلع الثمانينات نزل بدر الشلاح شهبندر التجار إلى المتاجر وأمر أصحابها بفتحها وعدم مناصرة الإسلاميين، وتمكن من فك الإضراب، فرد حافظ الأسد الجميل بزيارته في الغرفة التجارية في سوق الحريقة، وبات الشلاح مقربًا، واللافت في عام ١٩٩٤م أن كارتر زار مزرعة آل الشلاح في ريف دمشق[٦].

(١) تسريب صوتي لمكالمة حافظ الاسد مع الرئيس الاميركي رونالد ريغان، على منصة يوتيوب: http://youtu.be/L3Q3MGCMGP8

(٢) «مرتكزات نظام الحكم السوري (١٩٧٠-٢٠١١م) وأثرها في بناء الثورة»، للدكتور بشير زين العابدين، مجلة المركز العربي للدراسات الإنسانية، العدد التاسع، مارس ٢٠١٢م، ص (١٥٣-١٦٧).

(٣) ينظر: شرق الجامع الأموي، الماسونية الدمشقية، ١٨٦٨-١٩٦٥م، لسامي مبيض.

(٤) كتاب: موسكو والشرق الأوسط: ١٩٧٠ (Moscow and the Middle East:1970) ص٤٠، روبرت أوين فريدمان (١٩٩١).

(٥) ينظر: مأساة المخيمات الفلسطينية في لبنان، لمحمد سرور زين العابدين، ص (٢٦٦) وما بعدها.

(٦) رحيل راتب الشلاح... لماذا لقب بـ «شهبندر» تجار دمشق، سامي مبيض، مجلة المجلة، ٠٧ نوفمبر ٢٠٢٤م.

» وفي خضم الصراع مع الإسلاميين وصدام حسين، أعاد حافظ التوازن مع السوفييت لحاجته للخبراء والأمنيين والتسليح، وتجلّى ذلك بعمليات تمشيط في صفوف الإسلاميين وبعثيي الجناح الآخر، لكن تبعتها عمليات هائلة ضد السوفييت على يد جماعة مروان حديد بدمشق أدّت إلى مغادرتهم العاصمة بعد مقتل ضباطهم في الآمرية الجوية، ومستوطنات السوفييت، وحافلاتهم، كما اعترف الروس وذكرها الشربجي في مذكراته.

» ثم أعاد حافظ أسد توزان الدفة باتجاه الأصل في حرب الخليج ١٩٩١م، فأرسل فرقةً بقيادة علي حيدر لمشاركة التحالف الدولي، وتلقى أسد المليارات من الخليج كما مرّ، فيما واصل الشهابي وخدام رَجُلا أمريكا وفرنسا ذات المهمة منذ ١٩٧١م، وهي إدارة ملفات الحدود والعلاقات مع الغرب والكيان. وشهد العام ١٩٩٤م زيارةً حافلة لكلينتون إلى دمشق مرتين، ووصل عدد القمم الرئاسية بين حافظ ورؤساء أمريكا إلى ٧ قمم.

» قبل وبعد وفاة حافظ تمّ إبعاد الشخصيات القوية كالشهابي ودوبا وطلاس وخدام كي يتفرد بشار، لكن الأهم حصل بحضور وزيرة خارجية أمريكا أولبرايت جنازة حافظ عام ٢٠٠٠م، ثم اختلت بـ بشار، ونقلت وكالة الصحافة الفرنسية عنها حينها: «إنها وجدت بشار جاهزًا لتولي مهامه».

» عقب الثورة، تولى كيسنجر لسنوات «ملف التنسيق» بين روسيا وتل أبيب وواشنطن بخصوص سوريا، وكان يطير دوريًا ليجتمع مع بوتين على انفراد. وبتولي بشار الحكم كبر دور الابن راتب الشلاح الاقتصادي، فقام بافتتاح مصارف خاصة وجامعات، وسوق بورصة دمشق للأوراق المالية، وترأس بنك سوريا والمهجر[١].

لم يكن نظام الأسد مجرد نظام استبداديٍّ محليٍّ يدير الدولة عبر منظومةٍ أمنيةٍ قائمة على المصالح وشبكات الولاء، بل كان بنيةً وظيفيةً دولية؛ جمعت بين خطاب ممانع للاستهلاك الداخلي، وتفاهماتٍ عميقةٍ تضمن أمن الحدود ومصالح الخارج

(١) شرق الجامع الأموي.

شخصيات محورية ثبتت «نظام الحكم» وطبيعة ارتباطاتها ومهامها:

كان لا بد لحافظ أن يستعين بشخصيات يأمن توجهاتها وارتباطاتها ومصالحها، كان غالبهم -كما سيأتي- من الذين درسوا رفقةَ أسد على يد ضباط خرّجهم جيش المشرق في الكلية الحربية التي أسستها فرنسا بحمص، أو من المدنيين البعثيين الطموحين السنّة ممن قاموا بأدوار حكومية حساسة للنظام، وغالبهم له ارتباطات دولية.

- **حكمت الشهابي:** رجل أمريكا القوي، سُني تدرب في موسكو وأمريكا وشارك بانقلابات حافظ، وكان رئيسًا للاستخبارات العسكرية ١٩٧١م ثم الأركان، وعطفًا على تدربه في أمريكا مثّلَ أسد في الملفات في واشنطن ١٩٧٣م إلى أن تمّ توقيع اتفاقية ١٩٧٤م وزيارة نيكسون لدمشق. امتلك الشهابي وأولاده قصورًا في كاليفورنيا حيث توفي، كما تولى التفاهم مع العوائل الصناعية في حلب، وخلفه نائبه علي أصلان.
- **مصطفى طلاس:** صديق شخصي لحافظ، رافقه في مصر والكلية الحربية بحمص حيث جنّد له الضباط السنة، حتى وصفه مروان حديد بحمار منصوب للسنّة، مقرب من فرنسا حيث أقام أولاده وتقاعد وتوفي. شارك بانقلابات حافظ، ولعب دورًا حاسمًا ضد رفعت، خَلَفَه مناف طلاس لكن سُحب إلى باريس لدورٍ ما.
- **علي دوبا:** العقل الاستراتيجي الأمني، شارك في الانقلابات، أسّس معظم الفروع الأمنية بعد ترأسه الاستخبارات عام ١٩٧٤م عقب الشهابي، أقوى شخصية علوية أمنية علاقاتها متشعبة، وأدار الصراع ضد الإخوان المسلمين، استهدفته الطليعة المقاتلة أسوةً بحافظ ورفعت وناصيف، ويبدو أنّ علي مملوك رئيس «مجلس الأمن القومي» أخذ دوره، لكن مملوك كان غامض العلاقات والأدوار كمحمد الخولي قائد القوات الجوية والمخابرات الجوية والعقل الدولي خلف الستار.
- **علي حيدر:** رجل السوفييت العقائدي والأب الروحي للقوات الخاصة منذ ١٩٦٨م، وشارك في الانقلابات، جزار حماة وجسر الشغور، أوقف انقلاب رفعت ١٩٨٤م، شخصية قبلية علوية قوية، قاد القوات السورية في لبنان وحرب الخليج ١٩٩١م، ومناهض لمحادثات السلام والغرب، أبعده حافظ لقوته. خَلَفَه علي حبيب في الخاصة، عارض خلافة بشار لحافظ وكان يشتم بشار علنًا في المجالس ويتوقع سقوطه كما سيأتي!
- **محمد ناصيف:** الأقرب إلى عائلة حافظ، وأمينُ أسرارِه وعقلُه، علاقته وثيقة بالسوفييت وإيران شأنَ هشام بختيار الشيعي، كان يرشّح وزراء وسفراء وقادة عسكريين، أشرف على أولاده وتهيئتهم للحكم، وحماية النظام مع دوبا، حاول زوج بشرى الأسد (آصف شوكت) رئيس الاستخبارات العسكرية ذو العلاقات الدولية أن يلعب دوره العائلي.
- **عبد الحليم خدام:** نائب الرئيس، منظّرٌ ومخطط بعثي ووحشٌ سياسي، أسهم مع الأحمر في تماسك الحزب خلف حافظ، شارك في انقلاباته، واستلم محافظة حماة حينها ثم الخارجية، قاد ملفات لبنان ومفاوضات الكيان، حاول خلافة حافظ، ثم أقام في باريس حيث توفي، ارتبط بالحريري وفرنسا، حاول فاروق الشرع وزير الخارجية الأسبق لعب دوره لاحقًا.
- **عبد الله الأحمر:** نائب حافظ في أمانة الحزب، سني بعثي عتيد من ريف دمشق، ضَمِن ولاء السنة في البعث مع خدام، وهندَس الجبهة التقدمية، ولعب زهير مشارقة نائب رئيس الجمهورية الأطول مدةً دورًا مشابهًا.
- **عبد الرؤوف الكسم:** رئيس وزراء ٣ مرات في الثمانينات، ابن مفتي الشام الأسبق، من عائلة دمشقية مؤثرة، أدار الجانب المدني من النظام في أشد المراحل، وعُرف بعلاقاته الدولية الأوروبية، واقترن اسمه بإعلان حافظ حملةً شرسة للقضاء على الإخوان.

لم تُبنَ إدارة الدولة والمجتمع في سوريا بعد الاستقلال على دمج المجتمع وتمكينه، بل على ضبطه وتفكيكه: تحييد السياسة، تحجيم الدين المستقل، تفويض الجيش والأمن، وتذويب التعددية داخل دولةٍ تمسك بالمجتمع من الأعلى بدل أن تنبثق منه

أُسس إدارة النظام والمجتمع حسب أهداف المنظومة الدولية ومتطلباتها منذ الاستقلال:

١. حماية الأقليات وتضخيمها، والسيطرة السياسية والمجتمعية على السُنة: هي أمّ المعادلات، وكل ما يلي من أسس جاءت لتكرّس هذا الهدف التأسيسي الوظيفي، ولخدمة هذه الحقيقة الجوهرية[١].

٢. حماية الحدود مع المحتل، وحظر مؤسسات الوعي السياسي والوطني والدعاة لأجل ذلك: بقيت الحدود مع (الكيان المحتل) الأكثر هدوءًا بين دول المواجهة حسب (مناحيم بيغن). ولأجل ذلك كان أهم ما قام به العسكر منذ الاستقلال هو محاصرة (الإسلاميين) وكياناتهم، لتبلغ ذروتها بوصول (أسد). أدرك الغرب دور (الإسلاميين)، ولا أدلّ على ذلك من مساهمات (القسام) والقائد سعيد العاص وحملات السباعي ثم جماعة مروان حديد إلى فلسطين. والغرب يسعى اليوم إلى منع وجود كيانات سياسية وجمعيات إسلامية تبثّ الوعي والهوية الرافضة.

٣. التحكم بجمعيات الفكر والتربية الإسلامية المستقلة وحصرها وتوجيهها تحت الدولة: تجلّى ذلك التقنين أو التوظيف والتوجيه أحيانًا بمجمع النور ومعهد الفتح مثالين واضحين وغيرهما، وشمل المناهج والتوجهات والأفراد، وطال دور القرآن والدعاة، فيما تم منع مؤسسات وجمعيات أخرى كثيرة.

٤. تأميم مجلس الإفتاء والفتوى، ووضع يد الدولة على الأوقاف: قبل تولي آل الأسد الحكم كان منصب الإفتاء مستقلاً ويجري بالانتخاب والتزكية بين العلماء، ثم جاء تحجيم وتوجيه دور المفتي ومجلس الإفتاء وصلاحياته منذ حقبة (كفتارو)، وتحول إلى التعيين في عهد (بشار). هذا النهج في ضم (الإفتاء والأوقاف) يخالف ما كانت عليه الأمة وأئمتها و«ولاتها» منذ «الصدر الأول» إلى عهدٍ قريب، رغم تعدد وتعاقب الدول إلى عهد قريب. وقد شكّل (استقلال) العلم والفتيا والأوقاف قوةً للأمة وحفظ هويتها وعبّر عن كيانها في أصعب المراحل كما لاحظ المؤرخون.

«يُروى عن المفتي أبو اليسر عابدين رفضه إصدار فتوى تؤيد التأميم إثر الوحدة بين مصر وسوريا، وكان عبدالناصر طلب منه الإفتاء بذلك، لكن عابدين لم يجامله بذلك، فتم عزله عن المنصب حتى فرط عقد الوحدة، وعاد الشيخ إلى منصبه»[٢].

٥. تفويض الجيش السوفييتي دوليًا ضامنًا داخل سوريا لأمن الكيان وأداء الجيش: تجلى ذلك في مواجهات السبعينات والثمانينات ودور «الخبراء السوفييت» في دعم النظام في مواجهة (الإسلاميين). وقد تميزت علاقة (موسكو وتل أبيب) بالتفاهم والتنسيق دومًا عبر عقود منذ عهد الوحدة الناصرية فحرب ال ٦٧ ثم الثورة السورية مؤخرًا عبر تفاهمات (بوتين-كيسنجر).

كانت (موسكو) من أول من اعترف (بدولة الكيان) ونظرت بتعاطفٍ ومصلحية إلى تأسيسها على يد (اليسار العمالي الصهيوني). ولكون تسليح سوريا روسيًا، ولأسباب التوازنات وإظهار أن نظام دمشق ثوري معارضٌ للإمبريالية، كان السوفييت الضامن الأنسب للأمن دوليًا في دمشق وحدود (الكيان)، مع دعم بقاء نظامها الديكتاتوري المزايد!

٦. أداء أدوار وظيفية في المحيط العربي: تجلّى ذلك باحتلال لبنان، ومحاربة الفصائل الفلسطينية في المخيمات أو السيطرة عليها وتوظيفها، والوقوف مع إيران ضد العراق والمشاركة في حرب الخليج.

٧. الاستحواذ على تعددية الرأي وتذويب الكيانات في الدولة/ نموذج «الجبهة التقدمية» والحزب القائد للدولة والمجتمع: فبالإضافة إلى الاستحواذ على الأحزاب أو حلها، تمّ سلب فاعلية مؤسسات «المجتمع المدني» و«النقابات المهنية» والمنتديات المستقلة المعبرة عن المجتمع، وكبّل النظام النقابات التي أضربت في احتجاجات الثمانينات، وقبل ذلك تقرر عام ١٩٧٢م إذابة الأحزاب القومية والاشتراكية والشيوعية في سوريا في الدولة عبر (الجبهة الوطنية التقدمية)

(١) ينظر: الصراع العربي الإسرائيلي، مؤامرة الدويلات الطائفية، لمحمد سرور زين العابدين.
(٢) مقال: تاريخ الإفتاء في سوريا، تمام أبو الخير: https://www.noonpost.com/42389/

صناعة النظام السياسي الوظيفي في سوريا خلال قرن

بقيادة حافظ أسد أمينها العام، لتصبح ديكورًا حسب شهادة عضوها (ميشيل كيلو)[1].

٨. الدساتير الرئاسية الشمولية بصلاحيات مطلقة وملكية/ تعطيل فاعلية البرلمانات: اعتبرت "دساتير" البعث ثم (دستور حافظ) نموذجًا للقبض على السلطات الثلاث والصلاحيات بيد الرئيس، وسلب المجتمع والنواب والقضاء صلاحياتهم واستقلاليتهم وحق المحاسبة، ما رسّخ ومأسسَ الاستبداد والفساد ودولة البوليس، وطمسَ شخصية المجتمع والاقتصاد، وبالتالي كان الضعف والهزيمة، وأحادية وشللية القرارات.

٩. العائلة والطائفة والحزب القائد للدولة والمجتمع/ الدولة المستحيلة: أمسكت العائلة ومن ورائها الطائفة والمحسوبيات بمراكز القوى، لا سيما الأمنية والمالية وسخرت أدواتها، وجعلت المرور لكل طامح من السنة وغيرهم فقط من تحت بوابتهم، وبرزت شبكاتٌ أهمها:

- (آل الأسد): برز كمثال: "رفعت" ذو الميول الغربية، شارك في انقلاب ١٩٧٠م وصار محوريًا فورًا، ونهب خزائن الدولة وأقام شبكات تجارية، وكذلك عميد الأسرة لاحقًا "عدنان الأسد" قائد سرايا الصراع، وله صلات مع تل أبيب، فضلاً عن أولاد حافظ وقائمة العائلة الطويلة.
- (آل مخلوف): وصفت الإيكونوميست أنيسة مخلوف زوجة حافظ بأنها «شخصية هائلة» داخل عائلة أسد والحكومة.

وتعتبر عائلة مخلوف المستشار المالي لحافظ برئاسة محمد مخلوف المقرب من السوفييت، وأدارت الأسرة لآل الأسد إمبراطورية في قطاعات الاتصالات، الخدمات المصرفية، والنفط والغاز.

١٠. تَنَفُّذ العوائل الثرية "الماسونية"، والتحالف الخفي معها في التجارة الدولية: كما أسلفنا، بقيت طبقة الماسونيين التجار نافذة، وهم الذين بمقدورهم شلّ الاقتصاد في حلب ودمشق حتى اليوم، وقد استفاد النظام منهم في نسج علاقاته السياسية والتجارية دوليًا.

١١. تدمير الأخلاق وتسخير الإعلام والتمجيد، وخلق الاستقطابات ومافيات التجار وشبكات المخدرات: وبالمحصلة تفتت المجتمع، وكان ذلك في البداية عن طريق إغراق الناس بالشعارات واستخدام طلائع البعث والاختلاط وتغيير الهوية، ودعاوى التقدم ومحاربة "الرجعية"، وحشد المدارس والعمال والناس.

(١) مداخلة ميشيل كيلو في اجتماع الجبهة التقدمية ١٩٨٠م.https://www.youtube.com/watch?v=LPLy9-EPB4o

تضافر الشرق والغرب على تأييد المجرم ودعمه:

من المحطات اللافتة في الصراع مع حافظ أسد ما حصل بعد عملية الأزبكية ١٩٨١م، التي استهدفت أحد فروع القمع والإجرام؛ وهو فرع الأزبكية التابع للشرطة العسكرية، فأصدرت السلطة المجرمة بيانًا كاذبًا أُرفق بصورٍ لمجرمي السلطة المستهدَفين مضرجين بدمائهم، مدعية أنهم أبرياء قتلوا في الانفجار.

وسرعان ما تصدرت أنباء العملية نشرات الأخبار، وأشارت إلى بطش وظلم النظام، فاضطره إلى الكشف عن بعض ما يجري، وأعيدت إلى الأذهان مجزرة تدمر الرهيبة، إلا إنّ الدول الاستعمارية تجاهلت حقيقة النظام المجرم، فأرسلت برقيات التعزية والتأييد للمجرم أسد الذي أصبح في وضع نفسي مهزوز؛ ما دعاهم إلى شدّ أزر "المجرم العميل" للحفاظ على مصالحهم، فأرسل ريغان برقية إلى حافظ! واستنكر فيها العملية، وتجاهل حقيقة هذا الفرع القمعية ونسي أن يستنكر مجزرة تدمر وغيرها. وعلى غراره أرسل المجرم ليونييد برجنيف برقية إلى المجرم متناسيًا جرائم السوفييت في القوقاز ووسط آسيا وأفغانستان وغيرها.

وتوالت البرقيات، وظهر بوضوح أن الشرق والغرب مصمم على دعم "نظام أسد"، وتأكدت حقيقة أنّ حكومات العالم تحارب قيام دولةٍ مسلمةٍ سنية قوية في سوريا، وأن الاستعمارين الشرقي والغربي يريدان إبادة المسلمين في سوريا وطمس معالمها الدينية والحضارية"[1].

تعفّن حلقة النظام وتخلي الدول عن صنيعتها: هل من عودةٍ إلى الرشد وهويتنا في ظل المكر الدولي؟

قام نظام الأسدين على شعار اشتراكية المجتمع، ورأسمالية أذرع النظام في ظل خطاب مضاد للإمبريالية وتماهٍ سياسي مع الغرب، لكن بفعل الثورة التراكمي: أضاع بشار بوصلة والده، وصار تدريجيًا رهينًا على الأرض لطرفٍ واحدٍ مرفوضٍ دوليًا أكثر وأكثر، وضاقت خياراته بعدما تعفّن رأس النظام وتعفّنت حاضنته التي استنفرت وتكبدت سنوات طويلة، وشحّت موارده وخطوط مدده من صناعة المخدرات، وآل الحكمُ إلى السقوط وبات مكلفًا وغير مجدٍ -حتى للروس- بعدما ترنّح سنواتٍ طوال تحت ثقل ضريبة استمرار الثورة ١٤ سنة بما فرضته من مصاولته ومدافعته ومقاطعته بكل أشكال الفعل والضغط على خزانه البشري ماديًا ومعنويًا؛ ما جعل سقوطه مسألة وقتٍ كما توقع علي حيدر عام ٢٠٢٠م في مجالس العلويين، وكما سبقته مؤسسات دولية راصدة متحفزة، كمجموعة الأزمات الدولية التي راحت تفكّر مبكرًا مع المجتمع الدولي في أفضل حلٍ لو سقط النظام الذي كاد أن يسقط عام ٢٠١٣م لولا استقدام "داعش"، ثم ميليشيات إيران، ولحاق الروس، مع مكرٍ دولي سافرٍ وفي ظل ضرباتٍ كيمياوية.

> **لم تجعل الثورة سقوط النظام مسألة وقت فحسب، بل كشفت أن التحدي الحقيقي يبدأ بعده؛ إذ لم يعد السؤال متى يسقط، بل كيف يُستعاد المجتمع وتُكسر الوصايات التي صاغت الدولة من الأساس؟**

ختامًا:

ها هي سوريا تقف اليوم أمام تحدياتٍ هائلةٍ تصوريةٍ وعمليةٍ، وأسئلةٍ كبرى تفوق في ثقلها منعرج الاستقلال ذاته؛ إذ لا يقتصر الأمر على سقوط شخوص وأدوات الحكم البائد، الذي لم يكن سوى جزءٍ من بيئة نظام مركّب، بل يتعدّاه إلى عبء التفكك العميق، والتخلّص بعزمٍ من الفِخاخ القديمة وحبال منظومتها، ومن أوصيائه الخارجيين الذين ما يزالون حاضرين فوق ترابها، في قواعدهم، ومن خلال الطوائف المتربّصة، ومن خلفهم النظام الدولي بقوانينه وضغوطه وشبكات نفوذه.

لقد كان التهاون في مسألة الهوية، وعدم الحزم في دور المجتمع، ورفض الوصايات والفردانيات، أولَ الخلل عقيب الاستقلال، والشام مدعوةٌ اليوم برجالها وعقولها الجمعية لبث روح الوعي والعمل المجتمعي واستعادة شخصيتها المجتمعية المنتمية لحضارتها، وإكمال طريقها محتسبةً صابرةً نحو التحرر الكامل الذي أهدفت له مُهجها وأرواحها، ولا سبيل إلى ذلك إلا بعودة الركائز التي سُلبت منها وبحثناها هنا، ولو طال الطريق بعدما دفعت الأجيال معظم الأثمان.

(١) على ثرى دمشق، لأيمن الشربجي، ص (٣٧٧-٣٧٨) (بتصرف).

هل الإخلاص لله.. أولوية في حياتنا اليومية؟

أ. هدى عبد الرحمن النمر (*)

يمرّ الإنسان في حياته بما لا يُحصى من الأعمال والهموم، ويتقلّب قلبه بين بواعث لا يكاد يستقرّ لها طرف. وفي غمرة هذا التقلّب، يظلّ السؤال الأعمق حاضرًا: ما الذي يمنح هذه الحركة معناها، ويهدي خطواتها إلى وجهتها؟ فليس كل جهد يُثمر، ولا كل سعي يورث طمأنينة. ومن هنا تظهر حاجة القلب إلى الإخلاص؛ ذلك الأصل الذي تتجمّع عنده المقاصد كلّها، وتنتظم به الرحلة في معناها واتجاهها.

مدخل:

ما من مؤمن إلا ويأمل أن «يَضبط» قلبه على الإخلاص لله تعالى، أو يقف على المفاتح التي تفتح له أبوابه. وتُبنى كثير من تلك الآمال على أساس خيالات مثالية، تتصور الإخلاص بوصفه «التجرد التام من كل حظوظ النفس»، والاستقامة في الحياة في خط ثابت بلا حيود أو انحراف، وصولاً إلى تحقيق النفسية المطمئنة التي يُعبّر عنها باصطلاح العصر «السلام الداخلي». ولهذا يَقَر في نفوس الكثيرين أنه مفهوم تاريخي، أو مخصوص بنخبة من البشر هم «عِليَة» المؤمنين، وبقية الناس لا حظ لهم منه إلا التمني والتحسّر!

والكلام في الإخلاص طويل ومتشعب حتى وُضعت له المصنّفات وأُلفت فيه الرسائل، لذلك سيقتصر هذا المقال على تذكرة تنفي عن الإخلاص تلك الخيالات التي تعوق طلبه ابتداء، وتجعله أصلاً في حياة كل مسلم، يجتهد في مقاربته في كل أحواله.

مخلصين له الدين:

وردت هذه العبارة بهذه الصيغة في سبعة مواضع مختلفة من القرآن الكريم، جاءت في ستة منها مقرونة بالدعاء، وجاءت في سورة البينة مبيّنة للمطلوب من العباد، في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا

(*) كاتبة ومؤلّفة ومتحدِّثة في الفكر والأدب وعُمران الذات.

الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، أي: قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه، كما جاءت بصيغة الأمر في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، «أي: أخلص للّه تعالى جميع دينك، من الشرائع الظاهرة والشرائع الباطنة: الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تفرد اللّه وحده بها، وتقصد به وجهه، لا غير ذلك من المقاصد»[١].

إلّا أن في طياتها ركيزتين تتطلّب منا –مَعشَر الموحّدين– أن نتفكر في مدى فهمنا لمعناها ومقتضاها في حياتنا نحن، وقَدْر تَحَقُّقنا بها:

مفهوم «الدين»:

من معاني (الدِّين) لغة[٢]:

- الجزاءُ والحسابُ، ومنه قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].
- الطاعةُ والانقياد، يقال: دانَ بكذا دِيانَةً، أي اتبعه وانقاد لحكمه.
- العادَةُ والشأنُ، تقول العرب: ما زال ذلك دِيني ودَيْدَنِي، أي عادَتِي ودَأبِي.

والدّين أو الديانة في الاصطلاح العام: ما يعتنقه الإنسان من تصورات، ويَدين به من أمور الغيب والشهادة، وما يعتاده ويتخلق به من أنماط وتوجهات حياتية.

وفي الاصطلاح الشرعي: التسليم لله تعالى والانقياد له، والامتثال لشرعه الـمُتلقّى عن طريق الوحي.

وعندما يقال «الدين» هكذا بإطلاق، فالمقصود دين الإسلام؛ لأنه هو دين البشرية كلها منذ آدم عليه السلام إلى بعثة سيدنا محمد ﷺ، وهو دين واحد من عند الله تعالى تختلف بعض تشريعاته بحسب الأزمنة أو الأمكنة: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩][٣].

وبالتفكُّر في كلّ تلك التعريفات، تجد أنّ مدلول الدين فيها جميعًا لا يُمثّل مجرد «جانب» من جوانب الحياة، كما ذاع من أثر الثقافة المعاصرة التي تعبّر عنه بـ «الجانب الروحي» أو «الجانب الديني»، جنبًا إلى جنب مع «الجانب الاجتماعي» و«الجانب المهني»... وألفِ جانب آخر يزاحمه، ويطغى عليه غالبًا إذا لم تتسع الأوقات!

بل إنّ الدين –حتى بالمعنى اللغوي العام– مفهوم مُستَغرِق لحياة صاحب ذلك الدين، بكلّ تصوراته وعاداته ونظام حياته وموازين أولوياته ونوعيات اهتماماته وطبيعة شواغله... إلخ. فالدين هو الوعاء الحاوي والجامع للجوانب الأخرى، والـمَنبِت الذي تتفرّع عنه وتتولّد منه، وليس واحدًا من ضمنها. وخطر الدين وقدره يكمنان في أنه قضية الوجود ذاته، لا قضيةٌ «من بين» قضايا أخرى تتساوى في القَدْر والخطر!

ومما يغيب عنا أثناء اشتغالنا بتجزئة جوانب الحياة واللهفة على ضبط التفاصيل المنفردة قبل استقامة أسس الكليات: أنّ مِنّة الدين العظمى هي هدايتك للتصور الكلّي لهذا الوجود، والذي إن لم يَستَقِم لك أولاً فلن تنضبط جزئياته، تأمل مثلاً كيف أنّ حلّ متاهة مهما صعبت وتداخلت يكون أيسر وهي على الورق، بخلاف ما لو كنتَ تعبُرها من داخلها، لماذا؟ لأنّك في الأولى استوفيتَ التصوّر الكلّيّ قبل الخَطو، بخلاف الثانية القائمة على تكوين التصور الجزئيّ بحَسَب الخُطى.

فكذلك شأن هذه الحياة التي تبدو لنا متاهة متداخلة ذات دهاليز مُعضلة، وحين يستقيم لك شهود الصورة الكليّة لها وتتكامل في وعيك الرؤية الكبرى عن طبيعتها وعن طبيعة نفسك؛ تصير أقلَّ إلغازًا وأيسر اجتيازًا، وكثير من «الإشكالات الوجودية» السائدة بين المسلمين اليوم ليست مُعضلة ولا عصيّة على الفهم حقيقة، وإنما الإشكال في أنها ما تزال تمثّل لهم إشكالاً، مع أنّ بيانها حاضر بالفعل فيما بين أيديهم.

ثم تخيّل أصابع يد مبتورة بلا كَفٍّ يجمعها: أتنتفع بها مفردة؟ أم أنّ نفعها الحقيقي في حسن الترابط بينها؟ فكذلك نهج الحياة للإنسان كالكَفِّ للأصابع: لا بد أنّ يكون كُلّاً متسقًا ومترابطًا، واضحًا ومفهومًا عند صاحبه؛ ليتمكن من السير عليه، ولتستقيم به حياته. والمعوّل في هذا النهج أن يتضح لصاحبه تصورٌ جامع عن الحياة ومسيره فيها؛ تصورٌ يستطيع به أن يوافق الحقيقة

(١) تفسير السعدي، ص (٧١٧).
(٢) لسان العرب (١٣/١٦٩).
(٣) مستفاد من «كتاب التوحيد» لابن رجب الحنبلي.

الشرعية للوجود، ويتعامل معه بثبات ومرونة معًا، سواء وافق الناس أو خالفهم.

الإشكال عند كثير من المسلمين أنهم يندفعون في الحياة بغير فهم ماهيّة الحياة ومعنى الوجود وخصائصه وطبائع موجوداته، وجُلُّ ما لديهم من معرفة دينية هو معلومات سطحيّة، لم يتجاوز عمرها في عمق الفهم وشموليّة الرؤية مراحل الطفولة الأولى؛ لذلك -ومع تسرب مفاهيم الثقافة الغربية المعاصرة- يعاني الكثيرون من ظاهرة «الخواء» أو «الزيف» أو «الانفصام» الداخلي، مهما كثرت إنجازاتهم وتمتّعوا بأهوائهم، لأنّ الإشكال في «نهج» الحياة ووجهة «الرحلة»، لا في إنهاء المهام واجتياز المحطات واستهلاك الملذات.

> **الإشكال عند كثير من المسلمين أنهم يندفعون في الحياة بغير فهم ماهيّة الحياة ومعنى الوجود وخصائصه وطبائع موجوداته، وجُلُّ ما لديهم من معرفة دينية هو معلومات سطحيّة، لم يتجاوز عمرها في عمق الفهم وشموليّة الرؤية مراحل الطفولة الأولى!**

معنى «مخلصين»:

عندما يكون الكلام عن منهج حياة «منضبط» بالإخلاص والاستقامة، قد يخطر للذهن مثال خط مستقيم حادّ كالسكين، لا حيود فيه ولا منحنيات، وهذا مخالف لطبيعة الحياة والانضباط فيها! فالمقصود بالحياة المنضبطة: أن تكون متصلة ومترابطة في شعورك وفهمك أنت، ثم تمر فيها بالمواسم التي يمر بها كل بني آدم: فراغك وشغلك، وصحتك وسقمك، والتزامك وتقصيرك، وطاعتك وتفريطك... كما يوضح هذا الرسم:

كلها أحوال متصلة من حياة مستمرة تُحاسب عليها، لا أنها محطات تتوقف الحياة عند تحقق أو عدم تحقّق أحدها، أو يُرفع عنك الحساب فيما بينها ريثما تصل للمحطة التالية! بل حتى في أوقات حيرتك بخصوص شؤون معيّنة وتفاصيل جزئيّة يظلّ لك في التصوّر الكلّي للحياة صمام أمان، وفي معرفتك بربك واستعانتك به ملاذ ثابت لا يتبدل، فهذا المقصود بنهج الحياة القائم على الاتصال والوضوح.

والظن السائد بأنّ السبيل إلى السلام الداخلي واطمئنان النفس هو بلوغُ حالةٍ من الصفاء الدائم المستقر بلا اضطراب هو من أهم أسباب القلق والاضطراب، إذ تظل نفسيّة صاحبه مُستنفَرَة في وضعية «انتظار» دائم، لحلول تلك «اللحظة» النهائية، التي تصل فيها لمحطة الاستقرار أخيرًا، بتحقيق الاتساق الكامل مع النفس، والاستقامة الخالدة على الطاعة، كأنّ الأمر فرقعة إصبع أو تلويح بعصا سحرية!

وحتى حلول تلك الساعة الميمونة، فالوضع الطبيعي هو شعور المرء بنوع من التمايز بين الظاهر والباطن؛ بما قد يسميه البعض بالنفاق، وذلك بتعاكس حقيقة حاله في خصوصيتها مع دَعاوَى تَديّنه أو محاولات تزكية نفسه؛ فلا يجد سبيلاً واقعيًّا لراحة البال إلا أن يتعلم الاتساق مع هذا الانفصام، ثمّ مع الوقت لا يعود يستنكره أو يستشعره انفصامًا، وبذلك يتم له وَهْمُ الاستقرار ما دام لا وسيلة لحقيقته!

وهذا ما وقع مع الصحابي الجليل حنظلة الذي قال: لقيني أبو بكر فقال كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة! قال: سبحان الله، ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكّرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرًا، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: (وما ذاك؟) قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده؛ إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعةً وساعةً) ثلاث مرات[1]. والتوجيه

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٠)، وقوله: (ساعةً وساعة) يعني: لا يكون الرجل منافقًا بأن يكون في وقتٍ على غاية الحضور وصفاء القلب وفي الذكر، وفي وقتٍ لا يكون بهذه الصفة، بل لا بأسَ في وقت بأن يكون ساعة في الذكر، وساعة في الاستراحة والنوم والزراعة ومعاشرة النساء والأولاد، وغير ذلك من الـمُباحاتِ. المفاتيح في شرح المصابيح (١٤٣/٣).

النبوي واضح هنا بتقبل هذا الشعور، وأنه طبيعي لا غرابة فيه.

تفاوت الأحوال سُنة عامة:

سبحان الله! تأمّل الطبيعة حولك، ترى فيها من اليابس واليانع، والهضاب والسهول، والوعورة والسلاسة، والانحناء والاستقامة، ما لا يمتنع معه جميعًا أن تستشعر في لوحتها الكليّة سلامًا وانسجامًا، ليس على الرغم من كل تلك المتناقضات، بل بسبب كل تلك المتمايزات، التي هي في حقيقتها مكوّنات تكاملية، يشدّ بعضها بعضًا.

فحقيقة الاستقرار تكمن في تهيئة النفس لتقبّل أطوارها وتقلباتها التي تجري بها الحياة، وفي إدراك أنّ الاستقرار ليس نفيًا للحركة، بل هو طمأنينة ترافق تغيّر الأحوال واتساع تجربة العيش، مع استمداد الثبات والعزم من الله تعالى، ثم يأتي توطين النفس على عدم الجمود! ذلك أن النفس المستقرة الراضية ليست نفسًا راكدة ولا بليدة، وإنما هي كائن حي، وعلامة الحي أن ينبض بالحياة، كل أطياف الحياة، ويعايش بنفسه مختلف أحوال نفسه، في جَيَشانها وفورانها وتفاعلها مع الحياة. وتكمن أيضًا في تقبل طبائع الأشياء والآفاق والنفوس على ما طُبِعَت عليه، والتسليم لله في كونه بما خلق وما أراد، بدلَ معاكسة الطبائع أو التعامل معها على أنها ألغاز كونية.

ويتحقق الاستقرار ثانيًا عندما يَقَر في نفسك أنه لا استقرار «يُنتَظَر» عند محطة ما، وإنما هي حالة تعاش على مدى رحلة العمر. وحين تعيش منتظرًا أو متوقعًا أن تستقر نفسيًا في محطة ما، تكون قد حَكمتَ على نفسك بحرمانها الاستقرار فعليًا حتى تصل لتلك المحطة، التي لا تدري معالمها، بل ولا تبذل تجاهها سببًا حقيقيًا، وإنما تكتفي باتخاذها سببًا للنكد في حياتك، بالانتظار اليائس لهبوطها عليك أو حملك إليها بشكل ما!

وأمّا حُلُم الوصول لمرتبة النفس المطمئنة الذي يكثر ذكره في مقام الدعوة يتطلب منا وقفة تفكّر؛ فوصف «النفس المطمئنة» لم يرد في القرآن إلا في قوله تعالى: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝٢٩ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]. والمقام الذي وُصفت فيه بذلك تكون قد «فارقت» عنده الحياة، وانقطع بها العمل، وخُتِم لها على ما عاشت «تكابده»؛ فسبب اطمئنان تلك النفس ليس إعفاءها من المكابدة والتقلّب، بل

أنها كانت تكابد وتتقلب في الله تعالى، فحَقَّ لها أن ترجو أجر مكابدتها عند الله، وحقَّ لها أن تطمئن أن ربّها لا يضيّعها.

النفس المطمئنة لم تُوصَف في القرآن إلا ساعة لقاء ربّها؛ واطمئنانها يومئذٍ ليس خلوًّا من التقلب، ولا انفصالاً عن سُنّة الابتلاء، بل ثمرة مكابدةٍ عاشتها لله

يستغفرون الله فيغفر لهم:

كما أن التغير وتفاوت الحال سُنة كونية، فكذلك هو الوضع الطبيعي في حياة الإنسان، بل يُعدُّ ذلك من مقاصد خلقه، يقول النبي ﷺ: (والذي نفسي بيده، لو لم تُذنِبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يُذنِبون، فيستغفرون الله، فيغفرُ لهم)[1]، وذلك لأنَّ الله عز وجل أراد لعبده أن يقوم في مقام العبودية الخالصة؛ ذلك المقام الذي يجتمع فيه صدق الذلّ مع صفاء المحبة، فيعرف العبد حدَّه، ويعرف ربَّه، فيكون افتقاره إليه أصلَ قوته وسببَ صلاحه. وليس في الحديث تسهيلٌ على المصرّين على الذنب أو تعزيةٌ لمن يُهمِل قلبَه ويسترسل مع هواه، وإنما فيه كشفٌ لسَعة عفو الله تعالى ولطفه بعباده إذا أنابوا ورجعوا، ليكون باب التوبة مفتوحًا أمام من صدق في طلبها، لا ذريعةً للغافلين ولا مخرجًا للمتساهلين.

وفي ذلك إيضاح من النبي ﷺ أنّ الله سبحانه كما يرفع أهل الإحسان بإحسانهم، فإنه يعفو ويصفح عن أهل الذنب إذا تابوا، فيجمع لعباده بين عدله ورحمته، ليجد المذنب منفذًا للرجوع، ويجد المحسن ما يعينه على الثبات، ولا يكون لأحد حجّة في ترك التوبة ولا في اليأس من رحمة الله.

ومثل ذلك مستفاد من قول الجُنَيْد رحمه الله: «الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة، والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة»، ويشرحه ابن القيّم في كتابه «مدارج السالكين» فيقول: «المعارضات والواردات التي ترد على الصادق لا ترد على الكاذب المرائي بل هو فارغ منها؛ فإنه لا يرد عليه من قِبَلِ الحق موارِدُ الصادقين على الكاذبين المرائين، ولا يعارضهم الشيطان كما يعارض الصادقين؛ فإنه لا أَرَبَ له في خربة لا شيء فيها»[2].

والخلاصة أنّ السبيل للسلام الداخلي والاستقامة الجادّة عارم بالمعارك، وهو قائم على «رحلة عمر» من المجاهدة والمصابرة، وليس «محطة في العمر» تتجاوزها بعد إنهائها لغيرها. وإذا كان صلاح البال يعني أن تكون سِلْمًا في نفسك، وتحقيقه بأن يكون ما تعتقده وتقوله وتفعله في تناغم وانسجام، فذلك لن يتأتى من نهج المحطات في الحياة والتكلف المؤقت والحماسة الخارجية، بل من نهج الرحلة المتصل والعمران المستمر والصدق الداخلي على طول الطريق، وذلك لا على الرغم من التعثر أو الحيود، بل بهما ومعهما. وهكذا يتبين أن مكمن الاستقرار ومفتاح الاستقامة على المِلّة: الاتصال واستغراق كل أحوالك، ومنشأ زعزعتها التقطيع والتبعيض.

جمع الهم والقلب على الله:

للإخلاص عند أهل العلم تعريفات متعددة، لكن إذا تفكرنا في صياغة تعريف «عملي» للإخلاص، يمكن أن نقول إنه «جَمْعُ القلب والهَمّ على الله تعالى».

والمقصود بجمع القلب على الله تعالى: صدق محبّته تبارك وتعالى. فعندما «يشهد» المسلم بأنه لا إله إلا الله، فشهادته بمثابة توقيع عقد قلبي وإمضاء التزام وجداني، بأن يكون الله تعالى ورسوله ﷺ أحب إليه مما سواهما، وبأن يكون أشد حبًا لهما مما عداهما عند الجمع، وأن يُغلِّبهما على ما سواهما حال التعارض.

ولأنّ القلب سُمّي قلبًا من طبيعة تقلّبه وتعدد مَشارِبه وشُعَبه، فذلك يعني تطلب الجهد واليقظة من صاحبه في جَمعه وتركيزه وتخليصه وإسلامه لله تعالى، وهذه رحلة مجاهدة مستمرة، بل هي رحلة العمر، لا محطة تتمّ مرة، فتدوم بعدها تلقائيًا أبد الدهر!

فإذا سألتَ: كيف يمكن للمؤمن أن يحقق التوحيد بجمع القلب والهَمّ، وهو كغيره من البشر تتعدد اهتماماته وشواغله؟ كان الجواب: تخيّل حين تختار مجال تخصّصك الأكاديمي، ثم تدرس أثناء ذلك التخصّص الواحد عددًا من المواد، فلا

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).
(٢) مدارج السالكين (٢/٢٦٢).

يتعارض توحيدك لقبلة التخصّص مع تعدد شُعَب أو فروع علومه، بل إنّ تعدد الفروع يعمّق فهمك للتخصّص، ويرسّخ علمك في ذلك المجال الواحد.

كذلك توحيد قِبلة قلب المؤمن لا يمنع تعدد اهتماماته وشواغله، إلا أنه يضبطها في دوافعها الأولى وقواعدها الضابطة وغاياتها النهائية، لتكون موافقة لشريعة التوحيد ومقوية للصلة بالله تعالى، لا شِرْكًا فيه أو تشتيتًا عنه أو بُعدًا منه، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

إن توحيد الله تعالى ليس جانبًا من جوانب الحياة، وليس غاية ضمن غايات الوجود فحسب، بل هو المنبع والأصل الذي تنبثق منه وتتفرع عنه بقية المشاغل البشرية والجوانب الحياتية، التي هي كذلك من تقدير الله تعالى؛ ليجعل منها للعباد أبوابًا وسبُلاً للتعبّد له في مختلف أنواع حركتهم في الحياة وحالاتهم الشعورية أثناءها

كيف يكون جمع الهم؟

جمع الهَمّ يعني: تركيز الاشتغال الفكري والوجداني على أمر معين، والهَمُّ من الاهتمام بالشيء، أي العناية به وصرف الفكر إليه.

فلا يُخلِص مُخلص حتى يكونَ الإخلاص هَمَّه بداية، وشغلاً شاغلاً له على الحقيقة، ممتدًا على مدار اليوم وفي أثناء تفاصيله حتى يصير نهج حياته، لا وقفة فُجائية فحسب في لحظة ما عَبْر اليوم يستحضر فيها نيّة.

وتفكّر في مَثَل حبيبين في فورة حبهما، تجد أن قلب كل منهما يخلص طواعية وتلقائيًّا لصاحبه، ولله تعالى المثل الأعلى، فهذا معنى الإخلاص ببساطة: «دوام التفكير» أو «غَلَبة التفكير» في ذلك الآخر، فوق أي مشاغلَ أخرى مهما تزاحمت.

فمبدأ الإخلاص لله يتحقق حين يملأ التفكيرُ بالله اللحظةَ التي يعيشها الإنسان، فيكون رضا الله هو الشاغل الغالب على قلبه في تلك المدة، ولو كانت قصيرة.

* **مثال ١:** وأنت في الصلاة: يكون جِهادك في التركيز مع ما تقول، ورَدِّ فِكرك كلما شَرَد، وعدم الاستسلام أو الاسترسال وراء شرود الذهن، هذه العمليات كلها هي مكابداتك في تخليص نفسك لربك، يُرجى أنّ الله تعالى يتقبلها منك، ويثيبك عليها، ويهديك لما هو أحسن.
* **مثال ٢:** وأنت تَحضُر درسًا من دروس العلم: وأنت في الطريق للدرس تدعو الله تعالى في نفسك أن ينفعك بما يُعلِّمك ويَدُلَّك عليه، ثم في أثناء الدرس تذكر ربك فتستغفره بينك وبين نفسك، ثم بعد الدرس تحمده على ما علّمك وتسأله حسن العمل به، ثم في طريق العودة تدعوه بحفظ دينك عليك، ثم تذكره بالذكر المشروع في كل حال من أحوالك... إلخ.
* **مثال ٣:** وأنت متجه إلى عملك وطلب رزقك، تحرص على أن يكون حلالاً طيبًا كما يرضي الله تعالى، متجنبًا الأساليب التي نهى عنها الله ورسوله ﷺ، ودون أن يشغلك هذا الطلب عن ذكر الله وعما افترضه عليك من الصلوات وغيرها، وتبذل السبب وأنت تعلم أن الرازق والمعطي والواهب هو الله، لكنك تمتثل أمره وسنن أنبيائه في طلب الرزق ببذل الأسباب والتوكل عليه حق توكله.
* **مثال ٤:** وأنت في بيتك بين أهل وولدك، ترعى حق الله فيهم، وتؤدي ما عليك من الواجبات، وتعلمهم ما عليهم من الحقوق، وتأمرهم وتعودهم على الصلاة وتصبر على ذلك، وتعلمهم القرآن، وإلى جانب ذلك تتفقد صحتهم واحتياجاتهم ومشكلاتهم وتعينهم على تجاوزها، وفوق ذلك تمازحهم وتضاحكهم وتجعلهم يشعرون بدفء الحب والقرب منهم، كما كان رسول الله ﷺ يفعل.

كل هذه «اللحظات» و«المواقف» المتتالية على صِغَرها، والتي لا تتطلب أكثر من أن «تركّز» مع الله الواحد، في كلٍّ منها منفردًا بذرة إخلاص، وكلما زادت البذور وتفرّعت على مدار يومك ثم أيامك؛ أورقت في نفسك نبتة اسمها «الحضور مع الله تعالى»، فهذه النبتة هي مثال «الرحلة» التي تنمو معك مدى العمر، وفروعها -وليس نهايتها- هي «المحطات» التي تبلغها من عمل أو إنجاز ما.

كل مجاهدة صغيرة يقدّمها المرء لله تُربّي حضورًا خفيًّا ينمو مع الأيام؛ حتى يصبح توجّه القلب إليه عادةً راسخة، وحياةً يطمئنّ صاحبها إلى عاقبتها

أخذ الحياة بجدية:

عندما يكون الكلام عن أي نوع من الجدية في الحياة، مثل التركيز في نوايا الأعمال قبل الشروع بها، تستحضر الأذهان غالبًا تصورات نموذجية مما ورد في حكايات التنمية البشرية وقصص «العظماء» و«الناجحين»... إلخ، مثل الاستيقاظ مبكرًا والنوم مبكرًا، وممارسة الرياضة، والنظام الغذائي الصحي الصارم، وتخصيص ساعات محددة لممارسة الهوايات (إذا وجدت)... إلخ، ودوام النشاط والحيوية وغلبة العزم والمثابرة، وندرة أو انعدام الخمول والكسل وعادات اللهو وتضييع الأوقات... إلخ.

والحق أن المسألة أبسط من ذلك التصور، وأعمق في ذات الوقت؛ ذلك أن الجدية التي تعنيك –بوصفك مسلمًا– أن تدرك معنى المسؤولية، وهو الموقف أمام الله تعالى لتقديم الحساب عن عمرك فيم أفنيته، وعن شبابك فيم أبليته، وعن مالك من أين اكتسبته وفيم أنفقته، وعن علمك ماذا عملت فيه[1]. فالمطلوب من كل فرد مسؤول أن يصوغ لنفسه نمط الحياة التي يرتضي الحساب عليها والجواب بها أمام الله تعالى.

فإذا كنت ترتضي –مثلاً– أن تقيم الفرائض وتجتنب المحرمات، ثم ترتمي فيما بينهما على الأرائك أمام التلفاز أو تقلب في وسائل التواصل؛ فأنت وشأنك. وإذا كان من أولوياتك في الحياة أن تكسب من المال ما يوفر لك مستوى معيشة رفاهيًا، وتكدُّ لأجل ذلك في عدد من الوظائف أو ساعات عمل طويلة؛ فأنت وشأنك. وإذا كانت أولويتك في بذل أقل جهد ووقت ممكن لتوفير دخل معيشي يستر الحال ثم تنفق فاضل وقتك وعافيتك في أهواء شخصية؛ فأنت وشأنك، لكنك حتمًا ستواجه نتيجة سلوكك، في الحياة الدنيا من خلال آثار الغفلة والمعاصي، أو في الآخرة يوم تنصب الموازين وتوزن الأعمال.

إن الجدية في الحياة ليست هي المعضلة، والحياة الجادة لا تعني المثالية الخرافية، وليس ثمة شكل واحد قطعي لتحقيق المسؤولية عن الحياة وفيها. المهم في المسألة كلها أن تواجه نفسك مواجهة صادقة، فتقرر ما ترتضي وما لا ترتضي ثم تتسق مع قرارك. المطلوب أن تحيا حياة ترضاها لنفسك وترتضي عاقبتها عند لقاء ربك تبارك وتعالى، بكل ما تفعل ولا تفعل فيها، وبكل من أنت ومن لست أنت فيها. فإما أن تفصّل تطلعاتك في حياتك على مقاس طاقاتك، أو تربي طاقاتك على قدر تطلعاتك في حياتك، أو تظل متنقّلاً بين هذا وذاك حتى تستقيم على طريق. أما أن تعيش حياتك هاربًا من مواجهة نفسك وصوغ نمط معيشتك وترتيب أولوياتك، بل وتمد عينيك لحيوات غيرك متحسّرًا على ما يفعلون ولا تفعله أو ما لا يفعلون وتفعله؛ فهذا عنوان الحياة البائسة وعين البؤس في الحياة.

أول الإخلاص لله تعالى: أن يكون همّك الإخلاص لله تعالى؛ فإنّ الإنسان بالطبيعة مخلص لهمومه، لكن من لم يهتمّ حقيقة فلن يَصدُق حقًّا

ختامًا:

إنّ مسألة الإخلاص تخصّ كل مسلم، وتَلزَم كلّ فرد في نفسه قدر وُسْعه ووفْق عِلمه، والوُسْعُ بالتربية والعِلم بالتعلّم. وأوّل الإخلاص لله تعالى أن يكون همّك الإخلاص لله تعالى. فإنّ الإنسان بالطبيعة مخلص لهمومه، لكن من لم يهتمّ حقيقة فلن يَصدُق حقًّا، ويا بؤس عُمرِ مُسلم ينفقه منتسبًا لدين الله تعالى ويُحاسَب على أساس هذا الانتساب أمام الله تعالى، ولم يكن الله تعالى همّه حقيقة يومًا في عمره.

(١) حديث: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه) أخرجه الترمذي (٢٤١٧)، وفي رواية (٢٤١٦): (وعن شبابه فيم أبلاه).

دعوة

كيف نقض القرآن أنماط التفكير الجاهلي الموروث؟

د. خالد بريه [*]

يعرض المقال كيف واجه الخطابُ القرآنيُّ البنيةَ الجاهليةَ في جذورها، فهدمَ قداسةَ الموروث، ونقضَ التلقي المقلِّد، وحرَّر العقل من سلطان العصبية والمال والنسب؛ ليؤسّسَ ميزانًا جديدًا يقوم على الهداية والتقوى والعمل. ويبيّن كيف أعاد القرآن تشكيل الوعي الإنساني، وبناء منظومة معرفية تُواجه الجاهليات القديمة والمعاصرة، وتردّ الإنسانَ إلى مصدره العُلوي وغاية وجوده بمنهجٍ يوازن بين العقل والوحي.

أيُّ دعوةٍ جديدة تهدف إلى التغيير في المجتمع تُقابَل بالصَّد؛ لأنها تحملُ في طيَّاتها ثنائية التفكيك والتَّأسيس، وتنقضُ بنية التلقي في ثلاثةِ مستويات متشابكة: خطابٍ سائدٍ تشكَّل من تراكم العادات والتقاليد يسري في الوعي اليومي للناس بلا نقد ولا تمحيص، ومتلقٍّ متماهٍ مع الأفكار التي تسكن وجدانه وضميره، وبيئةٍ حاضنةٍ تُغذِّي هذه المنظومة وتعيد إنتاجها.

وأمامَ هذا المركَّب لا تملكُ الدعوة الجديدة إلا أن تزيح هذه البنية أو تُهذِّبها أو تنتقي منها ما يُعاد بناؤه وَفْقَ أسسٍ نابعة من الفكرةِ البديلة، وهذا ما صنَعَهُ القرآنُ الكريم في تعامله المبكِّر مع الرؤيةِ القرشية وسادتها، باعتبارهم التجسيد الأوضح لثقافةِ الجاهلية في أوجها. فالعقلُ لا يُصاغُ في فراغ، ولا تتشكَّلُ الأممُ من فرادةِ التجربة فقط، وإنما من طرازِ الفكر الذي يسكنها، ومن الوجهةِ التي تنظر منها إلى الوجودِ والمصير.

حينَ أطلَّ الخطابُ القرآني على مشهدِ الجاهلية لم يتوجه إلى السلوك المجرَّد، وإنما اخترقَ التركيبة الذهنية التي تصنعُ هذا السلوك، وأعادَ تأسيس الإنسان من الداخل، لم يأتِ الخطاب القرآني مكرِّرًا لصدى قائم، وإنما تجلى على الوعي البشري بمقاييس جديدة من التفكير، لبناءِ نظامٍ معرفيٍّ يُبصر الإنسان من حيث لم يكن يرى، ويهديه إلى ما لا تصله خطاه وحدها، وقد نَهَضَ الكتاب الإلهي ليعالجَ ما استقرَّ في الوجدان من أوهامٍ مقدّسة،

(*) كاتب وباحث، مشرف موقع حكمة يمانية.

ويُقيم مكانها نَسَقًا من التوحيد يحرِّرُ الإنسان من كلِّ هيمنةٍ لا تليقُ إلا بالله، وعَزَّز ما يحتاجُ إلى اكتمالٍ وبناء ليخرج من دائرةِ الفعل المجرَّد المعتاد إلى فضاء المعنى القيمي، وبذا سار النص القرآني في هدمِ البنى المستحكمة!

نهج القرآن مع الجاهلية:

لم يكن صِراع الإسلام مع عاداتٍ اجتماعية منعزلة، وإنما مع أنساقٍ فكرية شاملة تحدِّدُ طريقة النظر إلى الكون والإنسان والحق والقيمة، ولذا جاءت آيات القرآن الكريم تُقوِّضُ هذه الأنساق بالحجة والبرهان والنظر، وتبني بدلاً عنها نماذج تفكيرٍ جديدة، تُخرج الإنسان من سطوةِ الأرض إلى أُفقِ الوحي.

وليسَ المقصود بهدْمِ البِنية الجاهلية هجاء العربِ أو تسفيه إرثهم؛ فهُم -على ما كانَ فيهم من خطأٍ وانحراف- أمةٌ اختزنت من مكارمِ الطباع، والشمائل الحميدة، وصفاء الفطرة، ما جعلها أهلاً لتلقِّي رسالة السماء، واحتضان خطاب النبوة، فكانوا أهلَ نخوةٍ ووفاء، وشجاعةٍ وسماحة، وبلاغةٍ تصقل الذِّهن، وتفتح القلب للبيان، حتى إذا جاءهم الوحي لم يأتِ ليجتثَّهم من جذورهم، وإنما ليهذِّبَ ما اعتدل، ويقوِّمَ ما اعوج، ويبني على النبيل من خصالهم، ويطهِّرهم من أدران الوثنية والعصبية والظلم، «كانوا خلاصةً في الإنسانية، صهرتهم شمسُ الصحراءِ فلم تبقَ إلا عروقُ الرُّجولة الحق وخطوطها»[(١)]. فجاءَ القرآنُ يصفِّي معدنهم من شوائبِ الجاهلية، ويصوغ من معدنهم الأصيل رجالاً تليقُ بهم قيادة العالم، بعد أن نُفِضَت عنهم غشاوة الجاهلية، ونُفخ فيهم من روح الوحي ما جعلهم أعظم أمةٍ خرجت من أصلابِ الأرض.

نقض منهج التلقي غير النقدي:

إنَّ المتتبع لسياقاتِ القرآن في الرد على حُججِ المعاندين، سيجد أنَّ النُّخبة القرشية المعارضة لنهجِ السماء كانت تتعذَّر بتقديسِ الآباء والماضي بوصفه مرجعًا نهائيًا، ولهذا تصوروا أنَّ الحقَّ هو ما وافقَ سيرة الأجداد، ورأوا أنَّ التقاليد التي نشؤوا في ظلالها حُجة في ذاتها، لا تُراجَع، بل تُسلَّم وتُكرَّر، وهذا نَمَطٌ سائدٌ يحتمي به كل من أوغلَ النبيُّ في دعوتهم للإقبالِ على دعوةِ التوحيد بقلبٍ لا يشوبه كدر التقديس للآباء، وقيود الماضي، ولذا جاء القرآن مميّزًا بينَ الموروث الحق والموروث الباطل، فنزَعَ صفة القداسة عن التقاليد، وحوَّلها من مسلَّمات إلى مواد للفحص، وعرضها للنقد، وأتاحَ للعقلِ النظرَ فيها بعيدًا عن سياجِ القداسة المضروبة حولها، فكرَّرَ القرآن قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٣]، ليبين منهج التلقي غير النقدي، ثمَّ يأتي السؤال الكاشِف: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤]، لإثبات أنَّ معيار الصحة هو الهداية والبصيرة لا الأسبقية، فالقرآن استبدلَ العقل التكراري بالعقلِ التمييزي الناقد، الذي لا يُسلِّمُ إلا لما قامَ عليه الدليل، ولو خالفَ المعتاد، «ولـمَّا أبوا إلا إلف وهادِ التقليد فدنوا عن السُّمو إلى عدادِ أولي العلم بالنظر السديد؛ أنكر عليهم سبحانه وتعالى ذلك فقالَ مبكتًا لهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]»[(٢)]، وللزمخشري قولٌ بديعٌ في توجيه الضمير (لهم) فقد صرفه إلى الناس، وعَدَلَ بالخطابِ عنهم على طريقةِ الالتفات للنِّداء على ضلالهم؛ لأنَّه لا ضالَّ أضلُّ من المقلد، كأنه يقول للعقلاء: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون[(٣)].

> **القرآن استبدلَ العقل التكراري بالعقلِ التمييزي الناقد، الذي لا يُسلِّمُ إلا لما قامَ عليه الدليل، ولو خالفَ المعتاد**

تفكيك الأساس العصبوي الجاهلي:

لقد كانت دعوة القرآن الكريم إلى العرب دعوة تريدهم أن ينخلعوا عن معتقدات وعادات باطلة تمكنت من نفوسهم، وسكنت في قلوبهم، والعرب بخاصة أحرص الناس على مألوف التقاليد والعادات، وأشدهم حفاظًا على موروثِ الآباء والأجداد، لا ينخلعونَ عن تقليد من تقاليدهم إلا إذا انخلعت عنهم الحياة، ولا يتخلون عن عادة من عاداتهم إلا إذا تخلت عنهم أرواحهم التي تسكن كيانهم[(٤)].

(١) ينظر: الرؤوس، لمارون عبود، ص (١٨).
(٢) ينظر: نظم الدرر (٢/ ٣٣١).
(٣) الكشاف (١/ ٢١٣).
(٤) إعجاز القرآن، لعبد الكريم الخطيب، ص (١٤).

فقد أتى النص القرآني ليُحرِّر الإنسانَ من سطوةِ «الأثر» إذا لم يكن على «بصيرة»، ويقيم ميزان الهداية على أساسِ الدليل والتمييز والنظر، لا على أساسِ القِدَم أو الكثرة، فالهُدى ليس ما كان عليه السالفُ إن لم يكن الحقُّ معهم، والاتباعُ الحق هو اتباع ما يهدي إلى الله ولو خالف الناس أجمعين، ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

وامتدادًا لهذا التحرير القرآني من سطوةِ الأثر، لم يكتفِ الخطاب الإلهيُّ بنقضِ منهج التلقي غير النقدي، وإنما تجاوزَ ذلكَ إلى هدم الأساس العصبوي الذي كانت تُبنى عليه الكرامات، وتُوزن به الأقدار، فأزاح التصور الجاهلي الذي يستمدُّ فيه الفرد قيمته من القبيلة، ويرتهنُ فيه المعنى بالموروث، وتُسبغ فيه القداسة على السُّلالة والنسَب والمقام المجتمعي، كبيت دريد بن الصمَّة:

وهل أنا إلا من غَزِيَّةَ إنْ غوت
غويت وإن ترشد غزية أرشد

> **أتى النص القرآني ليُحرِّر الإنسانَ من سطوةِ «الأثر» إذا لم يكن على «بصيرة»، ويقيم ميزان الهداية على أساسِ الدليل والتمييز والنظر، لا على أساسِ القِدَم أو الكثرة**

تأسيس البدائل المعرفية:

لقد كانَ العقلُ العربي يرى أنَّ الكرامةَ موروثة، والحقّ مرهونٌ بمن علا نسبه، وعظم جاهه، وساد قومه، فالقبيلة كانت معبودةً؛ يُضحَّى من أجلها، ويُفنى فيها، وتُطاع طاعة العابدِ لمعبوده، وتُقاتل الأمم لتمجيدِ اسمها، ويُغضُّ الطَّرف عن ظلمها وجور أبنائها باسمِ «العُزوة» و«اللُّحمة» و«الفداء».

لكن القرآن الكريم جاء بمبدأ جديد في تغيير قيمة الأشياء ومعانيها، فالكرامة أضحت قائمة على التقوى والعمل لا على السُّلالة والنسب والجاه: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فبطل افتخار المتفاخرين بسلالةٍ أو موطن أو جاهٍ عشائري على أنه مصدر الحق، وإذا بالبشر كلهم سواءٌ على بساطِ الخلق الأول، لا يتمايزونَ إلا بما يحملونه من تقوى، وما يقدِّمونه من عمل، وما تنطوي عليه سرائرهم من إخلاص، بل وأعاد توظيف القبيلة ليحول همَّها من حمايةِ الفرد إلى حمايةِ الرسالة، فأعاد لها مكانتها في ضوءِ المنهجِ الإلهيِّ العادل.

وبذا نكتشف أنَّ القرآن نقلَ معيار الكرامة من النسب العالي والجاه والمال الوفير، إلى «التقوى»، لقد غيَّرَ المعيار من اللامستطاع إلى المستطاع؛ لأنَّ التقوى قيمة خلقية وليست وظيفة أو مهنة، ما يعني أنها لا تعيق أحدًا من الاتجاه إلى ما يُحسن أو إلى ما يحب، فكل ينافس في تحصيل التقوى من حيث يحسن أو من حيث يحب، كما أنَّ التقوى لا تتوقف على حسَبٍ أو نسَب أو صفاتٍ جسدية، أو وفرة في المال، بمعنى أنَّ الكل يستطيع تحصيلها والمنافسة فيها، بل وألغيت كل اعتبارات الدَّم عند لحظةِ الميزان الحقيقي في الآخرة: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]. فكأنَّ القرآن يقول: كل ما عظمتموه في الدنيا من عصبياتٍ فانية، ونَسَبٍ موروث، فهو عند الله هباء لا يزنُ مثقال ذرَّة إنْ خلا من تقوى تُشرف النفس وتُحيي الضمير.

ولعلَّ مما يعضِّد هذا الفهم أنَّ القرآنَ نَزَلَ معاتبًا للنبي ﷺ، لاهتمامِه بكبارِ قريش على حساب ضعافها حرصًا منه ﷺ على دعوتهم ودخولهم في الإسلام لما لهم من شوكةٍ وكرامةٍ موروثة، فجاء النصُّ منتصرًا للبصيرِ المقطوع من الجاهِ الجاهلي ومن كل حفاوةٍ مجتمعية: عبدالله ابن أمِّ مكتوم رضي الله عنه، وأعطاه حقه في الدعوة والاهتمام وإن لم يكن له حَسَبٌ ولا نفوذٌ في قريش، لكنه كان مُقبلاً بقلبه، حاملاً في أعماقِه بذرة النور، فأراد الله أن يبيِّنَ للأمة إلى يوم الدين أنَّ ميزانه ليسَ كميزانِ البشر القائم على المَوازين المادية والمقاييس الزائفة.

وضع معايير جديدة للمجتمع:

مضى التصوُّر القرآنيُّ يفكِّكُ التصورات الجاهلية الموروثة ركنًا ركنًا، وينقض بنيانها الاعتقادي والاجتماعي من أساسِه، فلم يكتفِ بزحزحة وثنية النسب والعصبية، وإنما امتدَّ ليقوِّضَ تأليه المال والزعامة، وما يتفرَّع عنه من ازدراءِ الضعفاء واحتقارهم، وتقديم الأغنياء في مواضعِ الكرامة، وتعظيمهم في مواضعِ الرأي والمكانة.

أتى القرآن ليقلب الموازين، ويفضح ضلال هذا المعيار الأرضيِّ البائس، فقال لهم على لسانِ النبوة الهادية: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾

[الأنفال: ٢٨]، فالمال في ميزان الوحي ليسَ شرَفًا في ذاته، إنه ابتلاء وفتنةٌ، وقيمة الإنسان لا تُستمدُّ منه؛ لأنه استمدادٌ مرهونٌ ببقائه، وهو أمانة مستودعة، وميراثٌ مردود، واستحقاقه لا يسوِّغ غطرسة، ولا يُجيز ازدراءً، ولا يصنعُ فضلاً ذاتيًّا؛ لأنه امتلاكٌ مؤقَّت، مشروطٌ بالحساب، ومربوطٌ بالزوال.

ثمَّ أعادَ القرآن تعريف العلاقة بالمال فقال: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، وقال: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، ليؤكد أنَّ المالَ ليس ملكًا خالصًا للعبد، وإنما هو مال الله، والعبد فيه مستخْلَفٌ ومُمتحَنٌ، يُسأل عنه: كيفَ جمعه؟ وفيما أنفقه؟

ثمَّ ارتقى التصوُّر القرآنيُّ بضَعَفةِ الناس، وجعلهم في واجهة الإسلام، وصدر الدعوة، وحملة الرسالة صفًا واحدًا مع بقية المؤمنين من ذوي المكان والجاه والنسب، لا لشيءٍ إلا لأنهم صدقوا الإيمان، وسبقوا إلى التصديق، ولم يثنهم فقرهم ولا ضعفهم عن اللحاق بركبِ الدعوةِ الجديدة، فإذا هم في طليعة المسلمين؛ لأنهم وقفوا خلفَ الحق، فوقفَ الحقُّ معهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]، أُمِرَ النبي ﷺ أن يُبقيهم إلى جانبه، ونُهيَ عن الالتفاتِ إلى رغباتِ المتكبرين الذين اقترحوا طردهم؛ لأنَّ الكرامة في هذا الدين لا تُقاس بالهيئةِ ولا بالغنى، بل بما في القلبِ من إخلاص، وبما في السعي من صدق: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ [النجم: ٣٩-٤١]. وبذا، يتكشفُ للناظِر كيف أعاد القرآن تشكيل الوعي البشري من جديد، فانتزعَ منه أوهام العظمة الزائفة، وفتح له باب الكرامة الحقيقية؛ كرامة الإيمان، ورفعة الطاعة وعزها، وشرف القرب من الله.

مضى التصوّر القرآنيّ يفكّك البنية الجاهلية من جذورها؛ فبعد أن زحزح وثنية النسب والعصبية، انتقل إلى تقويض تأليه المال والزعامة، وما نتج عنهما من ازدراء الضعفاء وتعظيم الأغنياء في مواقع الكرامة والرأي

معالجة القيم المغلوطة والتشكيك فيها منطقيًا:

ولم يقف القرآن عند هدم البنى العقلية الجاهلية في ميدان العقيدة والنسب والمال فحسب، وإنما توغَّل في تقويض منظومة القيم المغلوطة التي كانت تُزكِّي العمل المجرد عن الإيمان، وتُعلي من شأن الشعائر ولو قامَ بها مشركٌ بالله. وقد مثَّلت الآية: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩] نقضًا صريحًا لميزان القوم الذي يُسوِّي بين العقيدة الفاسدة مع المظهر الجليل، وبين العقيدة الحقَّة والجهاد الصادق. «روى العوفي في تفسيره عن ابن عباس أنَّ المشركين قالوا: عمارة بيت الله وقيام على السِّقاية خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم، ويستكبرون به، من أجل أنهم أهله وعماره، فخير الله الإيمان والجهاد مع رسوله على عمارةِ المشركين البيتَ وقيامهم على السقاية، وبين أنَّ ذلك لا ينفعهم مع الشرك، وأنهم ظالمون بشركهم، لا تغني عمارتهم شيئًا»[1]. لقد كانت الجاهلية تُقيم الشرف على خدمة الحجيج وعمارة المسجد، ولو اقترنت بالشرك والضلال، فجاء القرآن ليمحو هذا التصور، ويُقيم عوضًا عنه ميزانًا إيمانيًّا لا يعرف قداسة لعمل لا يقوم على التوحيد والإخلاص، ولا وزنًا لشرفٍ لا ينبعُ من صدق العقيدة وصفاء الوجهة، ومن ثمَّ أعاد القرآن ضبطَ المعنى، وحرَّر العقل من أَسْرِ التصورات المغلوطة، وبيَّن أنَّ العمل لا يُزكِّيه تاريخه، ولا تُمجِّده الأوهام، وإنما يرفعه الإيمان، وينزله الإخلاص منزلته.

وقد وصف ديتلف نيلسن المفارقة الجذرية التي أحدثها الإسلام في مواجهته للتصورات الجاهلية المضادة لروح الدين، إذ قال: «لـمَّا جاء الإسلام وجد نفسه مضطرًّا إلى أن يخوض غمار حرب طاحنة مع الوثنية، وعلى تلكَ الحرب توقفت حياة الدين وتوفيقه، أو موته وفشله. وقد كان يقضي فيها على كلِّ أثر أو بقيَّة من بقايا الوثنية، أو التي تذكِّر بالوثنية الجاهلية. ولم يعرف علم تاريخ الأديان حربًا بين دينيْن كتلك التي عرفها الإسلام؛ فالكتاب المقدس مثلاً احتفظ بكثير من الديانات القديمة، بخلاف القرآن الكريم الذي لم يحتفظ إلا بالقليل النادر. والمسيحية ضمَّت إليها -سواء

(١) محاسن التأويل (٣٦٤/٥).

أكان ذلك في وطنها أم في الأوطان التي غزتها- كثيرًا من العادات والتقاليد الوثنية، وكانت روح الوئام بينها وبين الوثنية قوية، بخلاف الوثنية مع الإسلام. فلا يوجد دين عالمي بَغَضَ تعدُّد الآلهة، وأغرم بالتوحيد، وتغنَّى به مثل الإسلام، ولا يوجد دين من الأديان قدَّر الله له النجاح في القضاء على الوثنية كما قدَّر للإسلام»[1]. إذن، فالإسلام دينٌ يقوِّض الهياكل الجاهلية من أصلها، ولا يستبقي منها إلا ما وافَقَ العدل والحق، واتسق مع جوهر الرسالة العامر، فيقره لأنَّه من بقايا النور الذي لم تطفئه ظلمات الوثنية، ولم تُفسده مواضعات الأهواء، فهو لا يصالحُ على باطل، ولا يواربُ في عقيدة، لكنه يُبقي من الموروث ما لم يتعارض مع جوهر التوحيد، ويهدم ما خالفه دونَ تأويل ولا مصانعة، وما وافَقَ منه تصوّراته الكبرى، اعتبره من أنوارِ الفطرة الباقية التي لم تُطْفَأ، فصحَّحَ وجهتها، وكمَّلَ بناءها، وحرَّرها من قيودِ العصبيةِ والانغلاق، (إنما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ)[2].

> **الإسلام دينٌ يقوِّض الهياكل الجاهلية من أصلها، ولا يستبقي منها إلا ما وافَقَ العدل والحق، واتسق مع جوهر الرسالة العامر، فيقره لأنَّه من بقايا النور الذي لم تطفئه ظلمات الوثنية، ولم تُفسده مواضعات الأهواء**

المقاربة الجاهلية والحالة المعاصرة:

وإذا كنَّا بصدد الحديث عن «الأنماط الذِّهنية» التي حاربها القرآن، فإننا لا نقصرها على اللحظة التاريخية للجاهلية، وإنما ننظر إليها بنيةً فكريةً قابلةً للاستنساخ بأشكال جديدة، لأنَّ ما يعالجه القرآن لا يقتصر على الظواهر، وإنما يتجاوزها إلى «الأنساق المعرفية» التي تصوغ رؤية الإنسان للعالم، وتنظم معاني الخير والشر، والحق والباطل، والوجود والمصير.

ولذا، فإنَّ مقاربة الجاهلية بوصفها بنية أو تركيبة ذهنية لا مجرد طور زمني سابق يُجيز لنا أن نتتبع تكرارها في صور أكثر حداثة؛ إذ تتخذ اليوم لبوسًا جديدًا، لكنه يُعيد إنتاج المنطلقات ذاتها: الانفصال عن الوحي، والاستغناء عن الله، وتأليه الإنسان أو السوق أو الشهوة.

وهذه ليست مقارنة جزافية، وإنما تستند إلى أنَّ الإنسان في كلِّ عصر إذا استغنى عن الوحي عاد إلى جاهليته الخاصة، مهما اختلفت أدواته ومفاهيمه؛ لأنَّ معيار الجاهلية القرآني هو الانحراف عن التوحيد ومضامينه في الحياة.

ومن هنا فإن نقد التيارات المعاصرة لا ينبني على رفض التطور أو تحقير المختلف أو ترك الاعتزاز بالتراث أو العادات والتقاليد لمجرد القِدم، بقدر ما يبنى على محاكمة الرؤية الكامنة فيها إلى «الميزان القرآني» الذي جاء ليفكك هذه البنى، ويقيم للإنسان تصورًا متماسكًا عن ذاته ومصدره وغايته.

لم تندثر الأنماط الذهنية التي حاربها القرآن في الجاهلية، وإنما أعادت إنتاجَ نفسها في منظومات فكرية معاصرة، أكثر تعقيدًا، وأشد إغراءً، وذات نفوذٍ عالمي، وقد وقَفَ النص القرآني بوصفه مرجعية حيَّة في وجه هذه التيارات، مفككًا بنيتها، كاشفًا زيفها، وراسمًا للإنسان أفقًا من التحررِ الحق.

فالجاهلية القديمة كانت تصوغُ الإنسان على عينِ القبيلة والموروث، والحداثة الجارفة تصوغه على عين السُّوق والهوى والإغراق في اللذَّة والاستغناء، والمآل واحد: قطع الصلة بالله، وطمس الغاية، وتفكيك المعنى، ومن هنا، وقفَ النص القرآني يتصدى لهذه التيارات لا من موقفٍ انفعاليٍّ آنيٍّ، وإنما من مقام معرفي بصير، يفككها من داخلها، ويكشف زيفها، ثم يرد الإنسان إلى موضعه الحق: عبدًا حرًّا لله، مكرَّمًا بالتكليف، مصونًا بسياج الفطرة.

فالإلحاد المادي -وإن لبس ثوب العقل وزيَّن خطابه بادعاء العلمية- يتهاوى عند أول سؤال غائي، ينكر الخالق ويؤمنُ بالمصادفة، ويطلب النظام من رحم الفوضى، وينقض العقل باسم العقل، فيأتي القرآن ليفضح هذا التناقض المستكنّ بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ويرد العقل إلى مداره الفطري: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

(١) التاريخ العربي القديم، ديتليف نيلسن وآخرون، ترجمة فؤاد حسنين علي، ص (١٧٣).
(٢) السنن الكبرى للبيهقي (٢٠٧٨٢).

[يونس: ١٠١]، حيث يتوقف التكرار وتبدأ العبرة. أما الرأسمالية النيوليبرالية، فقد اختزلت الإنسان، وجعلت مِعيار قيمته ما يملكه ويُراكمه من رغائب الاستهلاك، حتى صار المال هُويَّة، والسوق معبدًا، والأخلاق سلعة تفاوضية، فيأتي القرآن ليعيد التوازن، ويؤكّد -كما أكَّدَ لمن سَبَق- أنَّ المال أمانة: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، وأنَّ العلاقات تبنى على العدل والحق: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وأما النزعة الفردانية المتطرفة، فقد مزَّقت الإنسان من كلِّ انتماء، فلا هو عبدٌ لربه، ولا عضوٌ في أمة، بل كائنٌ منفلتٌ من كلِّ قيدٍ إلا هواه، ورغباته، وطموحه الجامح، فاستدعاه القرآن من غربته، وربطه بالله وبالعمران معًا: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ١٠٥]، فالفرد هنا فاعلٌ مسؤول، حرٌّ محكومٌ بميزان التكليف.

ثم تأتي فاجعة الشُّذوذ الـمُشرعن، بوصفه انحرافًا سلوكيًّا، وهُويّة قانونية تُربى عليها الأجيال، وتُسنُّ لها الشرائع، فجاءَ الخطاب القرآني ونظَرَ إليه كمؤشر على انهيار حضاريٍّ وفطري، فقال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ۝ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١]، والإسراف «اعتياد المجاوزةِ للحدود»[١]، وقد وصفهم الله بالإسراف، أي تمكُّن الشهوة منهم حتى ملُّوا المألوف وطلبوا المنكر، وذلك من شأن من استرسل في الشهوات حتى يعجزه الاعتياد عنَ الشفاء منها. وسُمِّي فعلهم فاحشةً وإسرافًا لاشتماله على وجوهٍ من الفساد: إذ استُعملت الغريزة في غير موضعها، فكان اعتداءً على الفطرة، وتغييرًا لخصائص الرجولة، وامتهانًا للإنسان بجعله أداةً لشهوة غيره، مع ما فيه من قطع النسل، وإضرارٍ بالبدن والنفس، فهو انحرافٌ عن سنن الخَلق وفسادٌ في نظام الحياة[٢].

ووصفَ حالهم بالجهالة لا بالخطأ العابر: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، إذ قلبوا الفطرة، وغابَ عنهم الميزان، وطاشَ العقل المستغني عن الإله كأن لن يقدر عليه أحد. ولو أمعنت النظر، ما توقَّفَ القرآن عند حدود الإنكار، وإنما تقدَّم خطوة أبعد، ففكَّكَ البنية، وفضح الجذر، ثمَّ أقام على أنقاضه تصورًا متماسكًا يعيد الإنسان إلى مصدره العلوي، ويرشده إلى غايته الكبرى.

ليست الجاهلية طورًا زمنيًا مضى، بل بنية ذهنية تعود كلما استغنى الإنسان عن الوحي؛ فالأفكار الحديثة -مهما تلوّنت- تعيد إنتاج المنطلقات ذاتها: قطع الصلة بالله، وطمس الغاية، وتفكيك المعنى، ولهذا بقي القرآن مرجعية حيّة تفكّك هذه الأنساق وتردّ الإنسان إلى موضعه الحق

وإذا كان القرآنُ قد وقَفَ في وجه التيارات الجاهلية المعاصرة، فليسَ ذلك انغلاقًا حضاريًّا، ولا توجسًا من الفكر البشري في ذاته، وإنما تثبيتٌ لمبدأ قرآنيٍّ جليل: أنَّ الوحي هو الميزان الأعلى الذي تُقاس به الأشياء، لا ما سواه. فالإسلام لا يُخاصم العقول، ولا يقطع الجسور مع النتاج الإنساني، لكنه يأبى أن يكون تابعًا لمناهج وُضعت في غياب السماء، أو أن يُطوَّع ليتماهى مع تصورات منبتَّة عن أصل الإنسان وغايته، إنه لا ينغلق عن المعرفة، وإنما ينفتحُ عليها من موقع المرجعية الربانية، والنموذج الأمثل، يستوعب ما وَافقَ الفِطرة والنُّور، ويكشف ما انحرف منها أو زاغ، فيبقى الوحي أصلاً، وسواه فرع يُوزن لا يَزن، ويُمحَّص لا يُسلَّم له.

ومرام القول: القرآن الكريم كتاب هدايةٍ لا يكتفي بإصلاح السُّلوك، وإنما يعيد تشكيل العقل، ويفكك بنيات الوهم، ويقيم للإنسان تصورًا جديدًا عن ذاته، وقيمته، ووجهته، لم يهادن الأنساق الموروثة، ولم يصالح الجاهليات المتجددة، لقد جاء بمعيارٍ مطلقٍ للحق، لا يتغير بتغير الزمان ولا يستبدل موضعه، وما تزال هذه الوظيفة الإصلاحية للقرآن ماثلةً، تحرِّرُ العقول من سطوة المألوف، وتُعلي الكلمة على السُّلالة، والإيمان على المصلحة، والحق على الصدى، من أراد الهداية فليقبل عليه بقلبٍ صادق يتطلب الفلاح، فإنَّ النور الذي أخرج الأوائل من ظلماتِ الوثنية قادر على أن يبدِّدَ الزَّيف المعاصر، ويقيم بها الإنسان من جديد.

(١) نظم الدرر (٤٥٥/٧).

(٢) وهذا فحوى كلام العلامة ابن عاشور في تعليقه على الآية. يراجع: التحرير والتنوير (٢٣٢/٨).

تحديات الإعلام الإسلامي البديل ومقومات رسوخه

د. محمود حلمي (*)

في زمن يتسارع فيه السباق الإعلامي وتزدحم فضاءاته بالأخبار والروايات المتدفقة والمتباينة، يبرز الإعلام الإسلامي البديل بوصفه صوتًا صادقًا للأمة، يسعى إلى كسر احتكار الكلمة وتقديم روايته الأصيلة للعالم. يتناول هذا المقال فُرَص هذا الإعلام في عصر الثورة الرقمية، وما يمتلكه من أدوات انتشار وتنوّع وتأثير، كما يستعرض التحديات الداخلية والخارجية التي تواجهه، ويؤكّد على أن ترسيخ حضوره لا يتحقق إلا بمنظومة واسعة من القيم والمقومات التي تصنع إعلامًا راشدًا مؤثرًا؛ ليغدو قوةً فاعلة تبني الوعي وتدافع عن القيم وتبلّغ رسالة الإسلام بجدارة.

لم تكن الوسائل الإعلامية بمختلف ألوانها على مر الأزمان مجرد أصوات تتردد أو حروف تُسطّر أو صور تُوزع وتُنشر، بل كانت على الدوام وعاء الفكر، ومرآة الهوية، وميدان الصراع بين الحق والباطل، وساحة العرض الكبرى التي تتجلى فيها الأمم بفضائلها أو تتوارى خلف نقائصها.

وفي عصرنا هذا، الذي تتلاطم فيه أمواج الإعلام كبحر هائج، باتت هذه الساحة أوسع من أي وقت مضى، وأشد تعقيدًا وأعمق أثرًا، لقد تحول الإعلام من مجرد ناقل للخبر إلى صانع للوعي، ومهندس للتصورات، وقوة جبارة قادرة على تشكيل قناعات الملايين، ورسم صورة الحضارات في أذهان الأجيال.

لعقود مديدة ظلت مفاتيح هذه القوة حكرًا على قلة أمسكت بزمام وسائل الإعلام التقليدية، من صحف وإذاعات وقنوات فضائية، هذه المؤسسات التي تحركها في كثير من الأحيان رؤوس أموال ضخمة وأجندات سياسية وفكرية محددة، قدمت للعالم روايتها الخاصة عن كل شيء، ولم يكن

(*) كاتب وباحث أكاديمي، أخصائي إرشاد أسري وتربوي.

العالم الإسلامي وقضاياه بمنأى عن ذلك؛ بل لعله كان في قلب العاصفة، حيث قُدمت عنه روايات في غالبها إما مبتورة تقتطع من سياقها، أو مشوهة تتعمد الإساءة، أو سطحية لا تغوص في أعماق واقعه وقيمه وحقيقة رسالته.

لكن سنة الله تعالى في كونه الفسيح تأبى أن يدوم الحال على ما هو عليه؛ فمع بزوغ فجر الثورة الرقمية وانفجار شبكة الإنترنت وما تبعها من منصات تواصل اجتماعي أضحت جزءًا من نسيج حياتنا اليومي؛ اهتزت أسس المشهد الإعلامي التي طالما بني عليها، تحطمت أسوار الاحتكار، ولم تعد الكلمة حبيسة الاستوديوهات الفخمة أو المطابع العملاقة، فأصبح بإمكان كل فرد يحمل في جيبه هاتفًا ذكيًا متصلاً بالشبكة أن يكون منبرًا قائمًا بذاته، وناشرًا لرسالته، وصوتًا يصل إلى أقاصي الأرض في طرفة عين، بتكلفة تكاد لا تذكر. مِن رحم هذا التحول العميق ولدت ظاهرة «الإعلام البديل»؛ إعلام الأفراد والجماعات الصغيرة، الذي ينبع من عموم القاعدة المجتمعية لا من القمة، ويتخذ من الفضاء الرقمي ميدانًا له.

وفي قلب هذا السياق بزغ نجم «الإعلام الإسلامي البديل»، كضرورة حتمية ومسؤولية تاريخية، فكان حتمًا أن يوجد ليقدم رواية الأمة عن نفسها، بصوت أبنائها، وليكون شاهدًا على قيمها، ومدافعًا عن قضاياها، وحصنًا في وجه الشبهات والأباطيل، وسفيرًا لرسالة الإسلام الخالدة في عالم متعطش للحق والعدل. يحمل هذا الإعلام في طياته إمكانيات هائلة تبشر بفتح جديد، ولكنه في الوقت ذاته يواجه تحديات جسام، وعقبات كؤود، بعضها ينبع من داخله، وبعضها يأتيه من خارجه، والتغلب عليها لا يكون بمجرد الحماس العابر، بل يتطلب وعيًا عميقًا، ومنهجية راشدة، واجتهادًا دؤوبًا.

فلماذا يجب أن يتوفر الإعلام الإسلامي البديل؟ وما هي آفاق الأمل التي يفتحها هذا الإعلام الوليد؟ وما هي العقبات التي تعترض مسيرته؟ وأهم من ذلك: ما هي المعالم والمقومات التي تضمن له النجاح والرسوخ، ليكون صوتًا مؤثرًا فاعلاً في زمن الضجيج وصراع الروايات؟

أولاً- بيانات قيّمة لتأطير الثورة الرقمية:

تشير أحدث تقارير الإعلام الرقمي العالمية إلى أن أكثر من خمسة مليارات شخص باتوا مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي على مستوى العالم في منتصف العقد الحالي[١]، بما يعادل أكثر من ثلثي سكان العالم، وأن متوسط الوقت اليومي الذي يقضيه المستخدم على المنصات يتجاوز الساعتين يوميًا[٢]؛ ما يوضّح حجم الفرصة المتاحة للوصول والتأثير عبر القنوات الرقمية، ويفسّر لماذا تصير أصواتٌ بديلة قادرة على محاكاة أو تحدّي خطاب الإعلام الكبير في زمن قياسي.

> **بزغ نجم الإعلام الإسلامي البديل بوصفه ضرورة حتمية ومسؤولية تاريخية؛ ليقدّم رواية الأمة بصوت أبنائها، ويدافع عن قيمها وقضاياها. يحمل هذا الإعلام إمكانات تبشّر بفتح جديد، لكنه يُواجِه تحدّيات داخلية وخارجية لا تُتجاوز بالحماس، بل بالوعي والمنهجية والاجتهاد**

ثانيًا- لماذا الإعلام الإسلامي البديل مهم الآن؟

إلى جانب الانتشار الرقمي العام، يتقاطع هذا الواقع مع نموّ سكاني إسلامي ملحوظ في العالم؛ فقد نما عدد المسلمين دوليًا بشكل ملحوظ خلال العقدين الماضيين، وهو ما يجعل الجمهور الإسلامي رقمًا ديموغرافيًا لا يمكن تجاهله عند رسم أي استراتيجية إعلامية عالمية. هذا التزايد السكاني يقوّي مبرر وجود إعلام بديل متقن ومؤسسيّ يعبّر عن هموم هذه الشريحة الكبيرة ويخاطبها بلغة العصر مع الثبات على المرجعية، ولا يكون ذلك على كاهل المؤسسات فقط، بل والأفراد كذلك؛ فكل مسلم يتحرى الحق والصدق يجب أن يسعى جاهدًا لنشر كلمة الحق والمعلومة الصحيحة قدر وسعه وطاقته.

ثالثًا- مقومات النهضة الإعلامية الجديدة:

لقد منحت التقنية الحديثة بما أتاحته من وسائل إعلامية جديدة للعاملين في حقل الدعوة الإسلامية ولعموم المسلمين أدوات لم تكن في

(١) تقرير (Digital 2024: Global Overview Report) لنظرة العامة العالمية على العالم الرقمي لعام ٢٠٢٤م، على موقع datareportal.com، بتاريخ ٣١ كانون الثاني يناير ٢٠٢٤م.

(٢) تقرير (The time we spend on social media) الوقت المستغرق على وسائل التواصل الاجتماعي في عام ٢٠٢٤م، على موقع datareportal.com، بتاريخ ٣١ كانون الثاني يناير ٢٠٢٤م.

حسبان الأجيال السابقة، وفتحت أمامهم آفاقًا رحبة لإيصال صوتهم، ومن أبرز هذه الإمكانيات:

١. **كسر أغلال الاحتكار الإعلامي:** لقد كانت الرواية عن الإسلام والمسلمين لعقود طويلة أسيرة لمؤسسات إعلامية كبرى، لا ترى في الإسلام إلا ما يوافق هواها أو يخدم مصالحها. أما اليوم فقد تحررت الكلمة، وأصبح بإمكان كل صوت إسلامي صادق أن يشق طريقه إلى آذان الملايين وقلوبهم مباشرة، دون وصاية أو فلترة، مقدمًا الصورة من زواياها الكاملة لا من الزاوية التي يختارها الآخرون. كما أن الأمر ليس على إطلاقه؛ فالكثير من منصات التواصل الاجتماعي (والتي هي مملوكة لشركات أجنبية من الأساس) أصبحت تفرض رقابة صارمة على كل ما يرتبط بالإسلام وتضعه تحت تصنيف الإرهاب، فأصبح الصراع الإعلامي بمثابة حربٍ حقيقية على تلك المنصات.

وعلى الرغم من ذلك أصبح من اليسير حاليًا التعامل مع الكثير من تلك المنصات واستخدامها في نشر الصوت والمبادئ الإسلامية، فهناك العديد من الأمثلة على إمكانية الانتشار والنشر الواسع من خلالها، منها:

- أنشأت (أستراليا) منذ منتصف العقد الماضي شبكة إنتاج رقمي وصلت مقاطعها لملايين المشاهدات وابتكرت حملات تمويل جماعي مثل حملة «Dollar a Day» كنموذج تمويلٍ امتدّ مردوده إلى نطاق واسع من المشاهدات والدعم المحلي والعالمي.
- هناك العديد من القنوات الرقميّة مثل (MercifulServant) على منصة يوتيوب، كمثالٍ على قدرة المحتوى القصير والمؤثر على الوصول العالمي والتفاعل الجماهيري بسرعة[1].

٢. **عالمية الخطاب وسعة الانتشار:** لا يعترف الفضاء الرقمي بسدود الجغرافيا ولا بقيود السياسة؛ فالمقال العميق، والمقطع المرئي المؤثر، والكلمة الصادقة، تستطيع أن تطوي المسافات في لحظات، وتصل إلى مسلم في أقصى الشرق، وباحث عن الحقيقة في قلب الغرب. هذه العالمية تضع على عاتق الإعلام الإسلامي مسؤولية مخاطبة البشرية جمعاء، بما يتناسب مع عالمية رسالة الإسلام ذاتها.

٣. **اقتصاديات الكلمة الجديدة:** كانت تكاليف إنشاء قناة تلفزيونية أو صحيفة واسعة الانتشار عقبة كأداء أمام أي مشروع إعلامي إسلامي جاد. أما اليوم فإن إنتاج المحتوى الرقمي ونشره قد أصبح في متناول اليد، فمثلاً: وسائل التواصل الاجتماعي التي أصبحت دارجة بكثرة في العالم العربي والإسلامي توفر الكثير من تلك المنصات الإعلامية سهلة الاستخدام وواسعة الانتشار؛ مما أتاح للمبادرات الفردية والمؤسسات الصغيرة أن تزهر وتؤتي أكلها، وأن تنافس بأثرها وقوة محتواها، لا بضخامة ميزانيتها.

> **أصبح بإمكان الصوت الإسلامي الصادق أن يبلغ الملايين مباشرة، مقدّمًا الصورة الكاملة دون وصاية أو تحريف، غير أن الطريق محفوف بعقبات الداخل ومكائد الخارج، من ضعف المحتوى، والتسرّع في نقل الأخبار، وتشتّت الجهود، وغلبة العاطفة على الحكمة، إلى سياسات المنصات وخوارزمياتها المتحيزة، وحملات التشويه الممنهجة**

٤. **التفاعل الحي وبناء جسور الثقة:** على عكس الإعلام التقليدي الذي يسير في اتجاه واحد، من المرسل إلى المستقبل؛ تتميز المنصات الرقمية بطبيعتها التفاعلية، فهذا الحوار المباشر عبر التعليقات والنقاشات والردود يتيح بناء علاقة حية مع الجمهور، وفهم احتياجاته، والإجابة على تساؤلاته، وتبديد شبهاته، وتكييف الخطاب ليلامس واقعه وهمومه، مما يعزز الثقة والمصداقية.

٥. **فسيفساء المحتوى وتعدد القوالب:** لم يعد الإعلام مقتصرًا على المقال المكتوب أو الخبر المقروء؛ فالفضاء الرقمي يتيح تقديم الرسالة في قوالب شتى: من الفيديو القصير والمؤثر، إلى المقاطع الصوتية والبودكاست الصوتي العميق، إلى الرسوم البيانية التوضيحية

(١) قناة Merciful Servant على منصة Youtube.

(الإنفوجرافيك)، إلى البث المباشر التفاعلي، هذا التنوع يفتح أبوابًا للوصول إلى شرائح مختلفة من الجمهور كلٌّ حسب ما يميل إليه ويؤثر فيه، كما يخاطب هذا التنوع رغبات مختلفة عند شرائح متعددة من الناس ويلبي احتياجاتهم اليومية؛ فأصبح انتشار الخبر أسرع صادقًا كان أم كاذبًا.

رابعًا- عقبات الطريق بين تحديات الداخل ومكائد الخارج:

رغم هذه الآفاق الواعدة فإن المسيرة محفوفة بالمخاطر؛ فالإعلام الإسلامي البديل يواجه تحديات بنيوية عميقة -داخلية وخارجية- تقف حائلاً دون تحقيق كامل إمكاناته، وتستدعي وقفة تأمل ومراجعة.

١. تحديات الداخل:

» ضعف المحتوى والمهنية أحيانًا: إن الغيرة على الدين والحماس للدعوة -على أهميتهما- لا يغنيان عن وجوب توافر الإتقان والمهنية؛ فالكثير من المحتوى الإعلامي الذي قد يتم تداوله -رغم صدق نوايا أصحابه- يعاني من ضعف في الجودة الفنية (التصوير، المونتاج، الإخراج)، وسطحية في الطرح الفكري، وركاكة في اللغة والأسلوب، وهذا لا يسيء إلى الرسالة فحسب، بل يزهد فيها الجمهور الذي اعتاد على مستويات عالية من الجودة في المنصات الأخرى، إن تقديم رسالة عظيمة في قالب رديء هو ظلم لهذه الرسالة.

» أزمة المصداقية والتثبت: في خضم سرعة تدفق المعلومات يقع الكثيرون في فخ نشر الأخبار دون تمحيص، وتداول الشائعات دون تحقق، وتقديم الآراء الشخصية على أنها حقائق مسلّمة؛ وهذا يتنافى مع المبدأ القرآني الأصيل: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، إن المصداقية هي رأس مال الإعلامي، ومتى ما فُقدت انهار كل شيء.

» تشتت الجهود وغياب الرؤية الجامعة: يغلب على الكثير من الجهود الإعلامية طابع رد الفعل اللحظي، والانشغال بالمعارك الصغيرة، دون الانطلاق من رؤية استراتيجية متكاملة: تحدد الأولويات المرتبطة بالأمة وليس بالفرد أو الجماعة الصغيرة، وتوزع الأدوار، وتوحد الجهود نحو الأهداف الكبرى. هذا التشتت يبعثر الطاقات، ويؤدي أحيانًا إلى تضارب الخطابات، ويجعل الإعلام الإسلامي كجزر منعزلة بدلاً من أن يكون جسدًا واحدًا متماسكًا، وعلى الرغم من أن هذا الحال يعتبر طبيعيًا في البداية، وكان هذا هو النمط الطاغي في العديد من المجتمعات، ولكن هنا تأخر في الإعلام الإسلامي البديل عن التوجه لتصحيح البوصلة.

» غلبة العاطفة على الحكمة: لا شك أن العاطفة الصادقة محرك قوي، ولكن حين تطغى على العقل والتحليل الموضوعي فإنها قد تقود إلى خطاب متشنج، ولغة انفعالية، ومنهج يعتمد على الصراخ لا الإقناع، وعلى الاتهام لا البرهان. وهذا النوع من الخطاب قد يلهب حماس الأتباع، ولكنه في الغالب ينفر الباحثين عن الحقيقة، ويغلق أبواب الحوار مع الآخر، وهو ما يخالف المنهج الرباني في الدعوة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

» ضياع الغاية المرتبطة بالله: فأصبحت غاية الكثير من العاملين في هذا المجال الإعلامي هو الربح المالي أو المزيد من المشاهدات، فلم تعد تلك الأرقام نتائج نقرؤها، بل أصبحت أهدافًا يسعى إليها صانع المحتوى، وهو ما ساهم في المزيد من المحتوى الضحل أو التافه، والذي يسعى ناشره إلى استجداء المشاهدات قبل الاهتمام بتحرّي الحقائق وتناول المفيد.

٢. تحديات الخارج:

» سياسات المنصات وخوارزمياتها المتحيزة: إن المنصات الرقمية الكبرى (فيسبوك، يوتيوب، تويتر وغيرها) ليست فضاءات محايدة، بل هي شركات تجارية لها سياساتها الخاصة، وخوارزمياتها التي تعمل كحراس بوابة يتحكمون من خلالها

بما يصل إلى الجمهور وما لا يصل، وكثيرًا ما يتم حجب المحتوى الإسلامي المعتدل أو تقييد وصوله تحت ذرائع فضفاضة مثل «خطاب الكراهية» أو «انتهاك معايير المجتمع»، في حين يُسمَح لمحتوى معادٍ للإسلام بالانتشار دون قيود. هذا التضييق الرقمي هو شكل جديد من أشكال الحرب الواضحة والموجهة في بعض الأحيان على الإسلام.

وهناك العديد من الأدلة والتقارير المستقلة والموثقة عن سياسة التقييد والحذف، والتي رصدت تقييدات وحجبًا وانتقائية في إزالة محتوى مرتبط بقضايا حساسة (مثل محتوى يعبّر عن مواقف سياسية محددة أو احتجاجات، أو قضايا تتعلق بأقليات مسلمة مثل قضية حربٍ غزة)، كما أبرزت منظمات حقوقية حالاتٍ كثيرةً يُشار فيها إلى أن أنظمة الحذف الآلية والخوارزميات تفتقر لسياق لغوي وثقافي تُبنى عليه القرارات؛ مما أدى إلى رسائل مفقودة وأدلة مَحجوزة في أطر تقليدية كانت مفيدة لرصد الانتهاكات. تقارير بعض المؤسسات مثل "Freedom on the Net" و "Human Rights Watch" توثق جوانب من هذه الإشكالية وتدعو إلى مزيد من الشفافية والمراجعة في سياسات شركات التقنية[1].

- حروب التشويه والإسقاط المنهجة: يواجِه كل صوت إسلامي مؤثر حملاتِ تشويه منظّمة من قبل جهات معادية للإسلام وقضايا الأمة، تهدف هذه الحملات إلى اغتيال الشخصية، وتلفيق التهم، ونشر الأكاذيب، وتقديم بلاغات كيدية لإغلاق الحسابات والمنصات؛ في محاولة لإسكات أي صوت يخالف روايتهم.
- معضلة التمويل المستمر: تعتمد أغلب المبادرات الإعلامية الإسلامية على جهود تطوعية أو تمويل شخصي محدود؛ مما يجعلها هشة وغير احترافية، كما تفقد القدرة على مواجهة التحديات لكي تستمر أو تتطور على المدى الطويل. إن إيجاد نموذج تمويل مستدام يضمن الاستقلالية ويحمي الخط التحريري من الضغوط والارتهان لجهات خارجية يظل واحدًا من أكبر التحديات التي تواجه كيانات الإعلام الإسلامي البديل.
- ضجيج المنافسة وطوفان المحتوى: الفضاء الرقمي ساحة شديدة الازدحام، يتنافس فيها الجميع على جذب انتباه المستخدم، وفي ظل هذا الطوفان من المحتوى الترفيهي والسطحي يصبح إيصال المحتوى الجاد والعميق إلى الجمهور والحفاظ على اهتمامه مهمة شاقة تتطلب إبداعًا استثنائيًا وجهدًا مضاعفًا.

> **يواجه كلّ صوت إسلامي مؤثر حملات تشويه منظمة من قبل جهات معادية للإسلام وقضايا الأمة، تهدف هذه الحملات إلى اغتيال الشخصية، وتلفيق التهم، ونشر الأكاذيب، وتقديم بلاغات كيدية لإغلاق الحسابات والمنصات، في محاولة لإسكات أي صوت يخالف روايتهم**

خامسًا- معالم المسير نحو إعلام إسلامي راشد:

لكي يتجاوز الإعلام الإسلامي البديل هذه العقبات، وينتقل من مرحلة الوجود إلى مرحلة التأثير، ومن رد الفعل إلى الفعل؛ لا بد له من التسلّح بمقومات أساسية، تكون له بمثابة المعالم على الطريق، وتجمع بين الأصالة الشرعية والاحترافية العصرية.

١. **المصداقية أمانة والتثبت عبادة:** يجب أن يكون الصدق والتثبت هما حجر الزاوية في كل عمل إعلامي؛ فالصدق ليس مجرد فضيلة أخلاقية، بل هو أساس الدين، كما قال النبي ﷺ: (عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة)[2]، إن تحري الدقة في كل كلمة، وتوثيق المصادر، والاعتراف بالخطأ إن وقع؛ هو ما يبني جسور الثقة الحقيقية مع الجمهور، ويجعل الكلمة مسموعة ومحترمة. وفي هذا السياق لا يكفي فعل الشيء

(١) تقرير (Meta's Broken Promises.. Systemic Censorship of Palestine Content on Instagram and Facebook) وعود ميتا المنكوثة، رقابة ممنهجة على المحتوى الفلسطيني على إنستغرام وفيسبوك، على موقع منظمة حقوق الإنسان hrw.org، بتاريخ ٢٠ ديسمبر ٢٠٢٣م.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠٧)، وأخرج البخاري (٦٠٩٤): (إن الصدق يهدي إلى البر ...) الحديث.

الصحيح فقط، بل يجب القيام بالتسويق للشيء الصحيح الذي يتم القيام به، فصانع المحتوى المسلم يجب أن يحدد معاييره ويصرح عنها ويلتزم بها لكي تكون له المصداقية. حرب السمعة والمصداقية في الوقت الحالي شرسة جدًا، فمن السهل جدًا إنهاء سمعة بناها فرد ما على مدى سنوات بخطأ واحد فقط، لذا يجب التثبت والتوثيق، وكذلك الإعلان عن المصادر بالأدلة لضمان بناء السمعة الموثوقة.

ومن الوسائل العملية التي ربما تُترجم المصداقية إلى آليات قابلة للتنفيذ داخل المؤسسات الإعلامية:

- إنشاء وحدة «تدقيق وتوثيق» داخل كل منظومة إعلامية مسؤولة عن التحقق من المصادر قبل النشر، للتحقّق من: المصدر، التاريخ، الشاهد، الوثائق.
- اعتماد «ميثاق أخلاقي» منشور يوضح معايير النشر وسياسة التصحيح.
- الاحتفاظ بأرشيف عام رقمي يسهل الرجوع إليه (مثال: صفحة «شفافية» تعرض تقارير الأداء، نسبة الأخطاء، وعدد التصحيحات الشهري).

هذه الممارسات أمضت طريقها في مؤسسات بحثية وإعلامية رصينة ورسّخت استقرار ثقة الجمهور بها.

٢. **الإحسان في الصنعة وإتقان العمل:** لا يكفي أن يكون المحتوى صحيحًا، بل يجب أن يكون متقنًا وجميلاً، إن مبدأ «الإحسان» الذي هو أعلى مراتب الدين يجب أن يتجلى في صناعتنا الإعلامية؛ يقول النبي ﷺ: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)[١]. الإتقان في جودة الصورة والصوت، وفي قوة اللغة والبيان، وفي عمق التحليل والفكرة هو احترام لعقل المتلقي، وتعبير عن عظمة الرسالة التي نحملها، فعلى كل صاحب محتوى ألا يكتفي بما وصل إليه من إتقان أو قوة، بل دائمًا ما يسعى إلى المزيد من التطوير والإتقان، فالعصر الحالي يتطور أسرع مما نتخيل، والأدوات والأساليب الإعلامية تتطور في كل يوم تقريبًا.

ومن الخطوات العملية التي يمكن الاعتماد عليها في تحسن وإتقان العمل الإعلامي المؤسسي والمجتمعي:

- برامج تدريب شهرية أو ربع سنوية في الكتابة الصحفية الرقمية، والسرد القصصي المرئي، والمونتاج.
- شراكات مع جامعات أو منصّات تعليمية لمنح دورات متخصصة في صناعة وتطوير المحتوى الإعلامي المتقن.
- نظام تقييم جودة دوري (scorecard) يقيس جودة الصوت، الصورة، النص، الدقة، والقدرة على الإقناع.

هذه الخطوات تساعد في تحويل الوحدات الإعلامية الصغيرة إلى مؤسسات مبدعة وفاعلة ذات تأثير وانتشار ومصداقية، وعلى الجانب الفردي: يكفي كل فرد مسلم أن يتحرى الصدق أينما كان ولا ينطق بكلمة دون تثبت وتحرٍّ حتى لا يضلل غيره، ولا يصبح سببًا في نشر الباطل أينما كان.

٣. **وضوح الهوية وعمق الرسالة:** يجب أن ينطلق الإعلام الإسلامي من هوية واضحة، تمثل الإسلام في صورته السمحة، الجامعة، الوسطية البعيدة عن الغلو والتفريط. وأن يحمل رسالة بنّاءة لا تكتفي بهدم الشبهات، بل تبادر إلى بناء التصورات الصحيحة، وتقديم الحلول لمشكلات الواقع، والغوص في أعماق القضايا الفكرية والاجتماعية والتربوية التي تهم الأمة[٢]. فعلى كل مفكر وعامل في ذلك الحقل أن يعمل على السعي نحو تصحيح المفاهيم وتوسيع المدارك نحو الرسالة الحقيقية للإسلام الشاملة لكافة جوانب الحياة، سواء كان فردًا أو مؤسسة فكل يسعى وفقًا لإمكانياته.

٤. **أخلاقية الخطاب وسمو الحوار:** إن المنبر الإعلامي أمانة، والكلمة مسؤولية؛ فلا يجوز أن يكون هذا المنبر ساحة لتصفية حسابات أو طرح خلافات شخصية عبر السباب والقذف أو

(١) أخرجه أبو يعلى (٤٣٨٦).

(٢) الإعلام الإسلامي: دراسة في المفاهيم والأصول والخصائص -بحث منشور ضمن مجلات أكاديمية، د. محمد موسى البر، مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، ٢٠٠٥م.

الغيبة والنميمة. يجب أن يلتزم الإعلامي المسلم بأخلاق الإسلام في حواره ونقده، وأن يضع الله ثم أمة الإسلام نصب عينيه، ويترفع عن المعارك الجانبية التي تحيده عن الغاية الأسمى، وأن يكون لسانه عفيفًا، وقلمه نزيهًا، ملتزمًا بقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]. القوة الحقيقية ليست في الصوت العالي، أو الضوضاء الفارغة، بل في الحجة الدامغة المحمولة على رسالة الخلق القويم، فمن يقع في ذلك الفخ من تغليب الانتقام الشخصي فوق المصلحة العامة عليه أن يتراجع ويعيد حساباته ويعمل على تغليب الأوليات العامة على الحسابات الشخصية.

وربما من الآليات الرقابية المقترحة داخليًا لتعزيز أخلاقية الخطاب في المؤسسات الإعلامية:

- إنشاء مجلس تحرير قضائي يتكوّن من علماء شرعيين، وصحفيين مخضرمين، ومتخصصي قانون معلومات؛ للتدقيق في المواد المثيرة للخلاف قبل النشر.
- وجود آلية استقبال شكاوى الجمهور والردّ الرسمي خلال مهلة زمنية محددة (مثلاً: ٧٢ ساعة) مع نشر تقرير شهري عن الشكاوى ومعالجتها.

هذه الوسائل تساعد على ضبط النبرة وتجنب الأخطاء الأخلاقية التي تضر بالرسالة قبل أن تنتشر.

٥. **التكامل المؤسسي وروح الفريق:** العمل الإعلامي المعاصر لم يعد عملاً فرديًا، إنما يتطلب النجاح الحقيقي بناء فرق عمل متكاملة، تجتمع فيها الخبرة الشرعية الرصينة، مع المهارة الإعلامية المتخصصة (كتابة، تصوير، مونتاج، تسويق رقمي)، مع الاطلاع العميق على مجالات الواقع (السياسة، الاقتصاد، الاجتماع). إن العمل بروح الجماعة ومبدأ الشورى هو سبيل القوة والبركة، وعلى صانع المحتوى المحترف السعي نحو إيجاد الفريق الناجح الذي يمكنه التكامل معه، فليس بالضرورة إن كنت وحيدًا أن تبدأ فريقك من الصفر، بل يمكنك أن تنضم لفرق أخرى ولا تتوقف!

٦. **استقلالية التمويل واستمراريته:** لضمان استقلالية القرار وحرية الكلمة، لا بد من السعي الجاد نحو إيجاد مصادر تمويل متنوعة ومستدامة، تعتمد على دعم الأفراد المؤمنين بالرسالة، والمؤسسات الخيرية المستقلة، واستكشاف نماذج اقتصادية مبتكرة كفكرة «الوقف الإعلامي»[1] الذي يخصص ريعه لدعم المشاريع الإعلامية الجادة، مما يحررها من ضغط الحاجة وسطوة الممول؛ لذا يجب ابتكار نماذج تمويل عملية وفاعلة مثل الصناديق الوقفية أو الشراكات والمؤسسات والمنح البحثية، وإيرادات المشروعات المتعلقة بالمحتوى الإعلامي، مثل بيع دورات، تراخيص محتوى، أو برامج تعليمية مدفوعة، وكذلك التمويل والدعم المجتمعي في حالة انتشار القضية وفاعلية الرسالة.

٧. **عالمية الخطاب وتعدد الألسن:** رسالة الإسلام عالمية، وقضايا الأمة تتجاوز الحدود؛ لذا لا ينبغي أن يظل خطابنا الإعلامي حبيس اللغة العربية. إن ترجمة المحتوى النوعي إلى اللغات الحية، وتكييفه ليخاطب العقليات والثقافات المختلفة؛ هو ضرورة استراتيجية لإيصال صوتنا إلى العالم، وواجب دعوي تتطلبه عالمية الرسالة. فإن كنت فردًا مُتقِنًا لأكثر من لغة فواجب عليك أن تنطلق بها جميعًا ولا تجعل محتواك حكرًا على اللسان الأم العربي، فحتمًا نحن نعتز بالعربية ونفخر بها ولكن التنوع والترجمة أمور تقتضيها عالمية رسالة الإسلام.

إن المنبر الإعلامي أمانة، والكلمة مسؤولية؛ فلا يجوز أن يكون هذا المنبر ساحة لتصفية حسابات أو طرح خلافات شخصية عبر السباب والقذف أو الغيبة والنميمة

(١) ينظر: الوقف الإسلامي: تطوره، إدارته، تنميته، للدكتور منذر قحف، والوقف على وسائل الإعلام ودوره في تحقيق مقاصد الشريعة، للدكتور أحمد عبد الحميد إبراهيم.

سادسًا- نتائج قيام إعلام إسلامي قوي وفاعل:

١. استعادة رواية الأمة وقضاياها:

لعل أعظم إمكانية يتيحها الإعلام البديل هي قدرته على تمكين الأمة من أن تروي قصتها بنفسها: أن يتحدث أبناء فلسطين عن قضيتهم، وأن يصف المسلمون في الغرب تحديات هويتهم، وأن يعبر المصلحون عن رؤيتهم لنهضة مجتمعاتهم. إن استعادة هذه الرواية من أيدي الآخرين هي خطوة جوهرية في استعادة الوعي والثقة بالذات.

٢. تعزيز الثقة والمصداقية:

من أبرز نتائج ترسيخ مقومات الإعلام الإسلامي البديل: قدرته على بناء جسور ثقة متينة بينه وبين جمهوره، فحين يلتزم بالمصداقية والتوثيق، ويقدّم المحتوى بلغة صادقة وصنعة متقنة؛ فإن ذلك يعيد الاعتبار للكلمة الإسلامية في الساحة العالمية، ويجعلها صوتًا مسموعًا يحظى بالاحترام، لا مجرد صدى عاطفي زائل.

٣. إيجاد بدائل عملية للنماذج الإعلامية المهيمنة:

الإعلام الإسلامي البديل إذا توافر له التمويل المستدام والهوية الواضحة يصبح نموذجًا واقعيًا منافسًا للمؤسسات الإعلامية الكبرى، لا في الكمّ فقط، بل في الكيف والقيمة المضافة؛ فهو لا يكتفي بردّ شبهات الآخرين، بل يطرح خطابًا مستقلاً، يقدم رؤىً فكرية ومجتمعية ناضجة، ويعكس أخلاقية الإسلام في الحوار والتفاعل، مما يفتح المجال أمام صناعة إعلامية جديدة نابعة من قيم الأمة.

٤. التأثير في الوعي العالمي وصناعة الأجيال:

بفضل عالميته، وتنوع قوالبه، وترجمته إلى لغات متعددة؛ يملك الإعلام الإسلامي البديل فرصة حقيقية للتأثير في وعي الشعوب الأخرى، وتقديم صورة الإسلام السمحة بعيدًا عن التشويه والتضليل. كما أنه يصبح مدرسة تربوية للأجيال المسلمة نفسها، تعلّمها قيم الانضباط، والصدق، والنقد الواعي، والتعامل الراشد مع أدوات العصر، وبذلك يسهم في صناعة جيلٍ جديد يحمل هويته بثقة وينفتح على العالم برشد.

> **من أبرز نتائج ترسيخ مقومات الإعلام الإسلامي البديل: قدرته على بناء جسور ثقة متينة بينه وبين جمهوره؛ فحين يلتزم بالمصداقية والتوثيق، ويقدّم المحتوى بلغة صادقة وصنعة متقنة، فإن ذلك يعيد الاعتبار للكلمة الإسلامية في الساحة العالمية، ويجعلها صوتًا مسموعًا يحظى بالاحترام، لا مجرد صدى عاطفي زائل**

ختامًا- الكلمة أمانة، والمنبر مسؤولية:

إن الإعلام الإسلامي البديل ليس مجرد أداة تقنية أو فرصة عابرة، بل هو ميدان جهاد بالكلمة والحجة والبيان، ومسؤولية تاريخية ملقاة على عاتق هذا الجيل من أبناء الأمة، إنه فرصة عظيمة أتاحها الله لنا لنكون شهداء بالحق في عصر كثر فيه الزيف، ولنبلغ رسالة ربنا بما يليق بعظمتها وجمالها.

إن مواجهة التحديات لا تكون بالشكوى أو بالانكفاء، بل تكون بالوعي العميق، والتخطيط الاستراتيجي، والعمل الدؤوب، والاحترافية المتقنة، والالتزام الراسخ بالأخلاق الشرعية. على العاملين في هذا الميدان أن يدركوا أن كل كلمة يكتبونها، وكل مقطع ينتجونه، هو أمانة سيُسألون عنها بين يدي الله.

حينئذ فقط، عندما تجتمع النية الصادقة مع العمل المتقن، والحجة القوية مع الخلق الحسن؛ سيتحول الإعلام الإسلامي البديل من مجرد صدى صوت إلى قوة حقيقية مؤثرة، تبني الوعي، وتصنع الأمل، وتساهم في نهضة الأمة، وتبلغ رسالة الإسلام للعالمين، ليكون بحق "صوت الأمة" في فضاء العصر الرقمي.

فرِّق.. تسُد!

أ. محمود درمش (*)

مما يدعو للتأمل: بقاء الطاغية على سدة الحكم سنين طويلة، بالرغم من تضرر جميع أفراد الشعب منه ومن ظلمه، والسرّ في ذلك يكمن في سياسة يتبعها الطغاة منذ القدم، وهي سياسة «فرِّق تسُد»، فما هي هذه السياسة؟ وهل لها جوانب إيجابية؟ وكيف ينفذها الطغاة؟ وماذا ينبغي على الأحرار تجاهها؟ هذه المقالة تسلط الضوء على هذه المعاني.

لم يُذكر جبار من الجبارة في القرآن الكريم ولم تُفصَّل أحوالُه كما فُصّلت قصة فرعون؛ فهو الذي طغى وتجبر، وناله الزهو والإعجاب بالملك الذي حصل له حتى ادعى الألوهية فقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. ولـمّا داخَله شعورٌ بالخطر يقترب من عرشه وسلطانه بسبب وجود بني إسرائيل في أرض مصر، وكان يدرك أنّه لا يستطيع اقتلاعهم وهم جماعةٌ ضخمة لا يقدّسونه ولا يسلّمون له بدعوى الألوهية؛ استبدّ بهم، وسخّرهم في أقسى الأعمال وأشدّها مشقّة، وأذاقهم ألوان الذل والعذاب، ثم ارتقى في سلّم الإجرام، فأمر بقتل ذكورهم ساعة يُولدون، واستبقاء إناثهم؛ ليضمن انحسار عدد الرجال فيهم وتناقص قوّتهم عبر الزمن، مع الإمعان في إذلالهم بالنكال المستمرّ والعذاب الذي لا ينقطع.

ولما جاءته دعوة الحق حاربها بكل الوسائل؛ فجمع السحرة وهدد، وقتل ومثّل، وكال التهم والافتراءات، ولم توقظه الآيات، ولا البلاءات التي تتابعت عليهم.

والنبي ﷺ لم يجد أنسب من فرعون ليشبه أبا جهل به في طغيانه وتجبره وكيده للحق وصده عن النور المبين، فقال فيه: (هذا فرعون أمتي)[1]، وهذا التشبيه النبويّ يفتح لنا بابًا فسيحًا للتأمل فيما حكاه الله عز وجل عن فرعون في كتابه، وما رواه رسوله ﷺ من أخباره؛ فليس ذِكرُ تلك القصص للتسلية، بل ليتبصّر المؤمن بسنن الظلم والعلوّ في الأرض.

(*) كاتب في قضايا التربية والفكر.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٨٢٥)، (٤٢٤٧) وغيره بألفاظ متعددة.

الطغيان طبعٌ إذا تمكن من القلب استوى في أهلِه، وسننُ المستبدين تتشابه وإن افترقت الأجيال، وطرائق الظلمة تتكرّر وإن تنوّعت الصور

وما يدعو للتدبر والتفكر أن ذِكرَ فرعون في القرآن الكريم والتفصيل في أحوال طغيانه وعلوه إنما هو بسبب تأثيره العظيم في بني إسرائيل، وبنو إسرائيل أمة سابقة للأمة المحمدية، تشكل بتجاربها ومفاصل تاريخها مجالاً خصبًا للاعتبار وفهم السنن الإلهية وأحوال الرسالات لنا نحن المسلمين، عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لتتبعُنَّ سَنَن من كان قبلكم شِبرًا شِبرًا وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ تبعتموهم، قلنا: يا رسول الله؛ اليهود والنصارى؟ قال النبي ﷺ: فمن؟!)[1].

وهذا الحديث يضع أيدينا على سنّة ماضية في الأمم حين يعتريها الضعف: وهي تقليد مَن سبقها في طرائق الانحراف ومسالك الغواية، حتى كأن الزمان يعيد نفسه بصورة أخرى، وليس هذا الاتباع مقتصرًا على العوام في عاداتهم ومظاهر حياتهم، بل يمتدّ إلى سلوك الأقوياء والولاة والجبابرة، فيتشبّه الطغاة بالطغاة، ويقتفي الظلمة أثر الظالمين، سواء أكان ذلك من بني إسرائيل أو من غيرهم ممن أخبر الله عنهم وكرر ذكرهم في كتابه.

فالطغيان طبعٌ إذا تمكن من القلب استوى في أهلِه، وسننُ المستبدين تتشابه وإن افترقت الأجيال، وطرائق الظلمة تتكرر وإن تنوّعت الصور، وبالرغم من كون فرعون ليس من بني إسرائيل، إلا أن تأثيره عظيم عليهم وعلى أخلاقهم، والعبرة تكمن هنا.

أسلوب فرعوني خبيث:

ذكر الله تعالى أسلوبًا اتبعه فرعون في تسلطه وحكمه وسيطرته على سكان مصر، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: ٤]؛ أي: فرقهم طوائف متفرقة، يتصرف فيهم بشهوته، وينفذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته[2].

فمنهم من يدنيه ويستخدمه، ومنهم من يقهره ويستضعفه، ومنهم من يسجنه أو يقتله؛ حتى لا يبقى بينهم رابطٌ يجمعهم، ولا ميزانٌ يستوون عنده، ولا مقصدٌ يتفقون عليه.

وهذا الأسلوب الفرعوني في تفتيت وحدة الشعب لا يصدر إلا عن طغيان ممزوج بدهاء، وعن سطوة تستبطن الخبث والمكر؛ إذ إن تقسيم الناس في المناصب يورث بينهم الاستعلاء؛ فيتنافرون، وتقسيمهم في الأموال يزرع الحسد؛ فيتباغضون، وتقسيمهم في القرب والجاه يثير الريبة والخوف؛ فيضعف تلاحمهم، وتقسيمهم في العقوبات سجنًا وتعذيبًا يجعل بعضهم يفرّ من بعض؛ فتتمزّق قلوبهم.

فهو منهجٌ يضرب في عمق الاجتماع الإنساني، وينخر في صلب الألفة والاتحاد، حتى إذا استحكم تفرُّقُ القلوب استحالَ عليهم التحرر أو النهوض؛ إذ غدت عاجزة عن الاجتماع على كلمةٍ واحدة.

ولا يبقى بعد ذلك ما يجمعهم إلا خدمةُ المستبدّ والتشيّعُ له، بينما تمتلئُ نفوسهم -فيما بينهم- بالاستعلاء والحسد والخوف، وكل ما يبدّد الروابط ويُضعف العزائم ويمزّق البنيان.

منهج «فرق تسد» يضرب في عمق الاجتماع الإنساني، وينخر في صلب الألفة والاتحاد، حتى إذا استحكم تفرُّقُ القلوب استحالَ عليهم التحرر أو النهوض؛ إذ غدت عاجزة عن الاجتماع على كلمةٍ واحدة

قال الطاهر بن عاشور في تفسير الآية: «جعل أهل بلاد القبط فرقًا ذات نزاعاتٍ تتشيَّعُ كلُّ فرقةٍ إليه وتعادي الفرقة الأخرى؛ ليتم له ضربُ بعضِهم ببعض. وقد أغرى بينهم العداوة ليأمن تألُّبَهم عليه كما يقال: (فرِّق تحكُم)، وهي سياسةٌ لا تليقُ إلا بالمكر بالضدِّ والعدوِّ، ولا تليقُ بسياسة ولي أمر الأمةِ الواحدة»[3].

ويتّبع الطغاة في هذا الفعل ما يعرف بسياسة (فرِّق تسُد)، وهو مصطلح سياسي عسكري

(١) أخرجه البخاري (٧٣٢٠) ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري.
(٢) تفسير السعدي، ص (٦١١).
(٣) التحرير والتنوير (٦٧/٢٠).

اقتصادي، والأصل اللاتيني له: «divide et impera» ويعني تفريق قوة الخصم الكبيرة إلى أقسام متفرقة لتصبح أقل قوة وهي غير متحدة مع بعضها البعض مما يسهل التعامل معها، كذلك يتطرق المصطلح للقوى المتفرقة التي لم يسبق أن اتحدت والتي يراد منعها من الاتحاد وتشكيل قوة كبيرة يصعب التعامل معها.

وسياسة «فرّق تسد» ليست سياسة جديدة، بل هي قديمة قدم السياسة نفسها حيث طبقها السومريون والمصريون واليونانيون القدماء لتفكيك قوة أعدائهم وتحييد هذه القوة من خلال توجيهها واحدة ضد الأخرى. ويبدو أن سياسة «فرّق تسد» تأتي بعد مرحلة «فرّق تغزو»؛ لأن استعباد شعب ما والاستيلاء على أرضه وثرواته يتطلب أولاً إنهاك قواه العسكرية والاقتصادية لغرض تسهيل العملية وتقليص تكاليفها، وهذا يتم عادة من خلال إثارة الفتنة الطائفية والتحريض على العنصرية ونشر روح الانتقام بين الطوائف والطبقات المكونة لهذا الشعب، وإشعال حروب داخلية وخارجية تنتهي بإنهاك قوى كافة الأطراف[1].

وهذه السياسة إذا استخدمت في الحروب لهزيمة الأعداء، فهي محمودة في هذا الاتجاه؛ فالحرب خدعة، والإيقاع بين الأعداء المتحالفين يسهم في الانتصار عليهم.

وفي السيرة: أتى نعيم بن مسعود ﷺ -وهو من غطفان- رسولَ الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت؛ فقال رسول الله ﷺ: (إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإنّ الحرب خدعة).

فقام نعيم ﷺ بعمل عظيم، وهو الإيقاع بين يهود بني قريظة من جهة، وقريش وغطفان من جهة أخرى، في تفاصيل معروفة في كتب السيرة[2].

غير أنّ الطاغية لا يعرف صداقةً تُصان ولا ولاءً يُحفظ؛ فهو ينظر إلى الشعب بعين العداوة نفسها التي ينظر بها إلى خصومه، ولهذا يلوذ بسياسة التفريق؛ فيزرع الشقاق بين أبناء بلده، ويؤجّج الفتن داخل بيته الداخلي بدل أن يوجّه جهده نحو أعدائه الخارجيين، وهكذا تنقلب الحيلة المحمودة إلى حيلة مذمومة، وينصرف السهم الذي ينبغي أن يُرمى به الخصم إلى صدر الشعب نفسه.

ومع ذلك، فثمة حقيقة لا ينبغي إغفالها: وهي أنّ الشعب الحرّ هو خصم المستبدّ وعدوه الأول؛ لأنه وحده القادر على كشف زيفه وإسقاط سلطانه؛ فلا غرابة إذن أن يعُدّ الطاغيةُ شعبَه ألدَّ أعدائه، وأن يرى في يقظتهم خطرًا على عرشه لا يقلّ عن خطر الجيوش المتربّصة به.

وما يهدف إليه الطاغية أو المستبد ليس الفتن التي تخرج عن السيطرة، وتحول البلاد إلى فوضى عارمة، بل التفريق الذي يحابي طائفة على أخرى، ويميز فئات على غيرهم، وتحميل بعض الفئات مشكلات تقصير الدولة في أمور الناس ومصالحهم.

الشعب الحرّ هو خصم المستبدّ وعدوه الأول؛ لأنه وحده القادر على كشف زيفه وإسقاط سلطانه؛ فلا غرابة إذن أن يعُدّ الطاغيةُ شعبَه ألدَّ أعدائه، وأن يرى في يقظتهم خطرًا على عرشه لا يقلّ عن خطر الجيوش المتربّصة به

الاستعمار أستاذ الطغيان المعاصر:

لئن كان فرعون نموذجًا تاريخيًا في الطغيان، فالتاريخ المعاصر لم يشهد أسوأ من حركات الاستعمار الأوروبية في زرع الفتنة وبث الفرقة، وتسليط الطغاة على البلاد ورقاب العباد، ولعل ما نشهده في بلاد المسلمين من الطغيان والاستبداد إنما هو غيض من فيضهم، ونزر من بحرهم.

ومن ذلك ما فعله البلجيكيون في رواندا التي ينحدر فيها السكان من قبيلتين عاشتا متجاورتين قرونًا طويلة، ولم يشعروا بفرق يذكر بينهم في اللغة والشكل واللون والثقافة والعادات، وعندما وصل المستعمرون البلجيكيون في عام ١٩١٦م، أصدروا بطاقات هوية تصنّف الناس وفقًا لعرقهم.

واعتبر البلجيكيون التوتسي -الذين كانوا أقل عددًا- متفوّقين على الهوتو، وعلى مدى السنوات العشرين التالية تمتعوا بوظائف وفرص تعليمية أفضل، ثم تراكم الاستياء وسط الهوتو تدريجيًا،

(١) ويكيبيديا، مادة: فرق تسد.
(٢) سيرة ابن هشام (٢/٢٢٩).

وبلغ ذروته في سلسلة من أعمال الشغب في عام ١٩٥٩م، حيث قُتل حينها أكثر من ٢٠ ألف من التوتسي.

وهذا هو موضع الشاهد؛ فالشعب الذي كان متعايشًا لا يفرق بين أبناء القبيلتين في الوظائف والعمل والزيجات والجوار، تحول إلى استقطاب قبَلي شديد، تطور مع الوقت حتى انتهى إلى واحدة من أسوأ المذابح التي حصلت في القرن العشرين، حيث قتل خلال ١٠٠ يوم ما يقرب من مليون شخص بكل الأدوات والأسلحة، بدءًا من المناجل والهراوات وانتهاءً بتفجير الكنائس التي لجأ إليها الهاربون من جحيم القتل، حتى قتل الجار جاره والصديق صديقه، أمام مرأى من العالم ومسمع.

أما بريطانيا فهي أستاذة إشعال الفتن في العالم المعاصر، فهي جزء أصيل من أسباب أي فتنة بين دولتين متجاورتين في العالم اليوم، فبسببها صار المصري غير السوداني، والأردني مختلفًا عن الفلسطيني، وبسببها حصل الاحتلال الصهيوني، وهي حاضرة في مشكلات كشمير بين الهند وباكستان، وهونغ كونغ مع الصين، وفي قبرص بين اليونانيين والأتراك، والقائمة تطول.

لكن ثمة نوع آخر من الفتنة مارسه المستعمر البريطاني في الدول التي احتلها، تتمثل في التحريض الديني والطائفي، فبعد الثورة التي قام بها الهنود (مسلمين وهندوس) عام ١٨٥٧م ضد الاحتلال، عمد البريطانيون إلى خلق فجوة بين المسلمين والهندوس، وذلك بتمييز الهندوس على المسلمين في الوظائف والأعمال الاقتصادية، فضلاً عن التجنيد الكبير في صفوف القوات المسلحة من أتباع الديانة السيخية.

غير أن أخطر ما وقع في تلك المرحلة أنّ الاستعمار البريطاني كان له دورٌ في ظهور حركتين جديدتين هما: الديانة الأحمدية القاديانية[١]، وطائفة القرآنيين[٢]؛ ليحدث مزيدًا من التفتيت وتعميق الشقاق داخل المجتمع المسلم.

ومن فتن البريطانيين ما عثر عليه أحد طلبة الدكتوراه خلال بحثه في أرشيف وزارة الخارجية البريطانية في لندن، حيث وقف على مذكرة سرية تعود إلى عام ١٩٠٦م، والمذكرة مرسلة من الممثلية البريطانية في بغداد إبان الحكم العثماني للعراق، ذُكر فيها أن معركة طائفية نشبت بين تجار سوق الشورجة في بغداد خلال أيام عاشوراء، وكان سبب المعركة هو إلقاء شخص مجهول سمكة الـ«جرّي»، في زير الماء المخصص لشرب الماء لزوار يوم عاشوراء، وهي من الأسماك المحرم أكلها عند الشيعة، فاتهم على أثرها التجار الشيعة زملاءهم السنة بهذه الفعلة.

الصادم في المذكرة أن فيها اعترافًا بأن البعثة البريطانية في بغداد هي التي كلّفت أحد خدمها الهنود بوضع سمكة الـ«جرّي» في زير الماء تحت جنح الظلام، بهدف إشعال الفتنة الطائفية بين التجار الشيعة والسنة، وطبعًا نجحت خطتهم الخبيثة، وأدت إلى مقتل وجرح عشرات العراقيين[٣].

بريطانيا هي أستاذة إشعال الفتن في العالم المعاصر، فهي جزء أصيل من أسباب أي فتنة بين دولتين متجاورتين في العالم اليوم، فبسببها صار المصري غير السوداني، والأردني مختلفًا عن الفلسطيني، وبسببها حصل الاحتلال الصهيوني، وهي حاضرة في مشكلات كشمير بين الهند وباكستان، وفي قبرص بين اليونانيين والأتراك، والقائمة تطول

الوشاية أهم وسائل التفرقة:

وللطغاة في إحكام هذا اللون من التفريق وسائلُ كثيرة، مثل: تمييز فئةٍ على أخرى في الوظائف والامتيازات، وإشعال العصبيات الطائفية والعرقية، وتحميل بعض الطبقات تبعات فشل الدولة، وإشاعة الخوف على الأرزاق، وتعميم ثقافة الشكّ والارتياب.

(١) على يد ميرزا غلام أحمد القادياني (١٨٣٥-١٩٠٨م)، الذي ينفي كون النبي صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء، وادعى أنه المهدي وألغى تشريع الجهاد وحرم الخروج على الإنجليز!

(٢) على يد أحمد خان (١٨١٧-١٨٩٨م)، الذي حمل المسلمين خطيئة تعرضهم للاحتلال البريطاني، فألزم نفسه بالابتعاد عن تحريض الناس، والرمي بهم عُرضةً للبطش الإنجليزي الوحشي، وفسر القرآن بالرأي المحض، ووضع شروطًا تعجيزية لقبول الحديث مما جعله ينكر أغلب الأحاديث.

(٣) مقالة (فن إثارة الفتن)، للكاتب طلال عبد الكريم العرب، موقع صحيفة القبس، ٦ أغسطس ٢٠١٧م، https://www.alqabas.com/article/٤٢٣٣٥٥-فن-إثارة-الفتن/.

ولعلّ أخطرها وأشهرها: تقريبُ بعض أفراد الشعب ليكونوا عيونًا على الباقين: يتسمّعون، ويتحسّسون، ويراقبون، ثم يرفعون ما أدركته آذانهم وما التقطته أعينهم إلى الحاكم، ولهذه الوشاية جهاز خاص يسمى في بعض البلدان: المباحث، وفي أخرى: المخابرات.

فإذا شاع في الناس أنّ بين ظهرانيهم من يندسّ بينهم من بني جلدتهم، يتجسّس على حركاتهم وسكناتهم، ويقيّد ما يسمع ويرى، ثم يدفع به إلى صاحب السلطان؛ انهارت جسور الثقة، وفشا التربّص، واستحكم الخوف، وتبدّلت الألفة وحشةً، وانقلب الأمن قلقًا.

وصارت الهمسات نفسها ترتعد في صدور أهلها، وقد انعكس ذلك في الأدب والشعر، قال الشاعر:

حتى صدى الهمسات غشّاه الوهَن
لا تنطـقـوا إنَّ الجـدار لـه أُذن![1]

وقال آخر[2]:

دخلت بيتي خلسة من أعين الكلابْ
أغلقت خلفي البابْ..
نزلت للسردابْ..
أغلقت خلفي البابْ..
دخلتُ في الدولابْ
أغلقتُ خلفي البابْ..
همستُ همسًا خافتًا: (فليسقط الأذنابْ)..
وَشَت بيَ الأبواب!
دام اعتقالي سنةً.. بتهمة الإرهاب!

ومن الوسائل الحديثة في هذا الباب: نشر ثقافة التبليغ والوشاية في ثوبٍ عصريّ؛ عبر مراكز خُصِّصت لذلك، أو تطبيقاتٍ إلكترونية، أو أرقام تُتاح للناس لرفع البلاغات والشكاوى؛ فيسهّل الطاغيةُ طريق الوشاية لكل فرد، ويرفع شعارات برّاقة من قبيل: كلنا واحد، ونحمي وطننا بأيدينا، بل قد يضع المكافآت والجوائز لمن يُبلّغ ويسعى في الوشاية، ويُغري الناس بستر أسماء المبلّغين وإخفاء هوياتهم بحجّة حمايتهم.

وهذا كلّه -وإن ظهر في صورة حماية الوطن وخدمة المجتمع- لا يثمر إلا مزيدًا من التمزّق والتنازع، ويزرع الخوف والذعر في النفوس، ويعزّز الأنانية والأثرة، حتى يصبح كلُّ فردٍ خصمًا لأخيه، لا يجمعهما إلا سلطان مستبدّ يتقوّى بفرقتهم، ويستطيل بخوفهم، ويستبدّ بولائهم المشوب بالرهبة والشك.

> **إذا شاع في الناس أنّ بين ظهرانيهم من يندسّ بينهم من بني جلدتهم، يتجسّس على حركاتهم وسكناتهم، ويقيّد ما يسمع ويرى، ثم يدفع به إلى صاحب السلطان؛ انهارت جسور الثقة، وفشا التربّص، واستحكم الخوف، وتبدّلت الألفة وحشةً، وانقلب الأمن قلقًا**

الانسياق إلى الوشاية:

مع كثير من الغفلة وانخفاض الوعي، ينساق كثيرٌ من الناس إلى هذا الأسلوب بشيء من التدرُّج، حتى يصبح الواحد منهم -وهو لا يشعر- جزءًا من البناء الذي يشيده الطاغية، وقد تكون النية الحسنة هي الدافع لهم، فيظنون أنهم مأجورون على ما يفعلون، أو أنهم يسعون في خيرٍ وصلاح، بل إنّ كثيرًا منهم لا يقدم على الوشاية إلا وهو يظن أنّ قصده شريف، وأنّ نيته الصادقة كافية في صحة ما يفعل.

ويُلبِّس الشيطان عليهم هذا المسلك في ثيابٍ جميلة؛ فيصوّره تارةً تعاونًا على البر والتقوى، وتارةً حرصًا على وحدة الوطن، وأخرى حمايةً من «المفسدين» وقطعًا لشرورهم، ولكنّهم يفسدون من حيث لا يشعرون.

وهذا كله إذا افترضنا في الوشاة المنساقين حُسنَ النية وسلامة المقصد، لكن حال الشعوب الخانعة للطغاة أنها تفقد مع الوقت سلامة المقصد، فيشرع الناس في الاستفادة من سياسات الطغاة في التفريق والوشاية، لا لشيء إلا لجلب مصلحة عابرة، سواء كانت فتاتًا من مال، أو تقربًا من مسؤول، أو خوفًا على رغد العيش، وقد يتطور الأمر فيَصِلُ استخدام هذه الوسائل الطغيانية إلى المكايدات والمماحكات اليومية، فتصبح وسائل للنيل والانتقام بعد أي

(١) بيت من قصيدة: أرملة الشهيد، للشاعر هاشم الرفاعي.
(٢) تنسب إلى أحمد مطر.

خلاف أو شجار! وما أكثر من غُيب في السجون وأودع في غياهبها بسبب وشايات أصلها خلاف بين أطفال، أو شجار بين جيران.

وشايةٌ ووشاية:

وقد يقول قائل: هل جميع سياسات وأعمال الدول في مجال جمع المعلومات هو من باب الوشاية الطغيانية التي تؤدي إلى تفريق الشعوب وإضعافها؟ أم يمكن التفريق فيها بين حالة وحالة؟ وللإجابة عن هذا السؤال نحتاج للنظر في مقاصد الطغاة من جمع المعلومات وتشجيع الناس على الوشاية والإيقاع ببعضهم، وهي تتلخص في تثبيتهم على عروشهم، وحماية استبدادهم، ومنع أي أخطار تؤدي إلى زوالهم.

والوشاية المذمومة التي نقصدها هي تلك الوشايات التي تعين الظالم في ظلمه، والطاغية في طغيانه، كالإبلاغ عمن انتقد شيئًا يخص الحاكم أو السلطة، أو تكلم في مظلمة تعرض لها، أو نال من شخص الحاكم بما يقال في المجالس والبيوت، ومنها كذلك ملاحقة الناس في أفكارهم وآرائهم التي لم يعلنوها ولم تصل إلى حد الفعل المضر بالمجتمع.

وفي المقابل: لا شك أن من أعمال المباحث والمخابرات ما يحمي الدولة من اختراق الأعداء، وما يحمي الناس من أهل الإجرام والعصابات التي تعتدي على الأنفس والأموال والأعراض، ومثلها أعمال الدراسات ومراكز المعلومات التي تستخدمها الدول في بناء سياساتها وخططها وتحتاج لأجلها معلومات وبيانات واسعة، فالدول لا يمكن قيامها بدون تحسس الأخطار والمؤامرات التي تحاك لها، وكثير من ذلك يدخل في قاعدة (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب).

أما الشكوى والتظلم فهو حق مشروع لا يُسلب ولا يُلغى، ويدخل فيه رفع الشكاوى إلى المسؤولين، مما يُسهم في حفظ الأمن وتتبّع الجرائم الحقيقية كالاعتداءات والجنايات والسرقات، والتحرش والتنمر والابتزاز، وكذلك الإبلاغ عمن يُعرف أنه جاسوسٌ لجهات معادية.

ومما لا يدخل في الوشاية المذمومة: الشكوى على المسؤول المفرّط في الأمانة، ممن يهدر المال العام، ويعطل معاملات الناس؛ فالمسؤول الذي لا يراقبه المراجعون والمستفيدون قد يستبد ويمنع الناس حقوقهم.

> **تُخلِّف سياساتُ الطغاة آثاراً تتجاوز إحكام السيطرة، إذ تفتك بالبنية الاجتماعية، فتنشر أخلاق العبيد، وتُشيع النفاق والتملّق، وتُورث الناسَ روحَ الاستبداد، وتُخمِدُ فكرَ الشباب وإبداعهم، وتؤدي إلى تراجع مؤسسات الدولة في التعليم والاقتصاد وسائر المخرجات**

حصاد الشوك:

لهذه السياسيات التي يتبعها الطغاة في جعل الشعب فئات مختلفة ثم التفريق بينهم تأثيراتٌ سلبيةٌ كبيرة، تتجاوز حدَّ سيطرة الطاغية، وإلجاء الناس إلى منطقة الإكراه والخوف، إلى آفات عميقة تلامس التكوين المجتمعي، منها: التخلق بأخلاق العبيد، والتصبغ بالنفاق والرياء والتملق، وانتشار سمة الطغيان والاستبداد لدى عامة الناس، وخمول الفكر وكسل الجوارح وتراجع الإبداع والتفكير السليم لدى الشباب وانحصاره في دائرة الخروج بأقل الخسائر، فضلاً عن التأثير في مجالات أخرى مثل: تراجع مستوى ومخرجات مؤسسات الدولة كالتعليم والاقتصاد وغيرهما.

وسأركز على أثرين اثنين لهما علاقة مباشرة بموضوع المقالة (فرق تسد):

١. طغيان الأنا وتغليب المصلحة الآنية:

فالمستبد الظالم الذي فرق الناس وجعلهم شيعًا لا يصفو له الجو إلا بتخويف الناس على أرزاقهم وقلقهم على أبنائهم، ومع كثرة القلق والخوف تطغى الأنانية، وتصبح غاية المرء أن ينجو ولو غرق الناس كلهم، فيقلّ العطاء والبذل، ويكثر الشحّ والبخل، ويغيب الإيثار، وهذه الأمراض لها تأثيرها المباشر على صحة المجتمع ونهوضه، لأن المجد منوط بالبذل في سبيل المجموع، والتخلص من أسر العمل لأجل المنفعة الخاصة.

والإسلام في أول أمره نهض على أيدي المهاجرين الذين ﴿أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الحشر: ٨]، فبذلوا أموالهم وأرواحهم في سبيل نصرة دين الله، وعلى أيدي الأنصار الذين ﴿لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، فتخلصوا من شح أنفسهم، وقاسموا من هاجر إليهم أموالهم وديارهم، فقام سوق الدين

ونهضت الأمة وازدهرت وحطمت أعتى الممالك، ولا نهوض للمسلمين إلا بمثل هذه الصفات.

٢. انعدامُ الثقة وسوءُ الظن والعداوةُ بين الناس:

الاستبداد يتغذى على العداوة بين الناس، ويجعلهم يعيشون في قلق وخوف دائمَين؛ يغرس بينهم بذورَ الشقاق، ويُدخلهم في دوائر قلق لا تنتهي وخوفٍ لا يهدأ. يفرّق المجتمع شيعاً متنافرة، ويرفع فئةً ويخفض أخرى في الوظائف والامتيازات، ويبعث النعرات والعنصريات من مرقدها، ويؤجّج العصبيات الطائفية والعرقية، ويلقي على بعض الطبقات وزرَ عجزه وفشله، ويشيع فيهم الخوف على أقواتهم، وينشر ثقافة الشك والارتياب حتى تُصبح مزاجًا عامًا.

وحين يستحكم ذلك، تُطوى صفحات الثقة بين الناس، ويُقصى التوادّ ويصعد سوء الظن، وتُذبح القيم على مذبح المادة والمنفعة. ثم لا تسأل بعد ذلك عن كساد التجارة، وفساد الشراكات، واستفحال الأنانية والنفعية.

وإذا رأى الناس الظلم والمحاباة وتكديس الثروة في أيدي ثلة من أعوان المستبد، تغيب عنهم القناعة والرضا، فيحقدون على الأغنياء؛ لأنه ارتبط في أذهانهم أن الثراء مرادف للفساد ونتيجة له، بل يؤول في النهاية إلى كراهية الوطن ويفقدون الانتماء والإيجابية.

ومع الاستبداد يظهر علماء السلطان وما أكثرهم، الذين يخلعون مسؤوليتهم الدينية على أعتاب القصور، ويُفصّلون الفتاوى للحاكم بليّ أعناق النصوص، ومما ينتج عن ذلك: شيوع منطق التعميم لدى الجماهير، فيغدو في أذهانهم أن كل عالم أو داعية يتقاضى راتبه من الدولة إنما هو مأجور ومرتزق وبائع للدين بالدنيا[1].

> **من أعظم ما يجابه به الطغاة: اتباع الهدي القرآني في التربية، في تحريره للنفوس من الأوهام والمخاوف، وتعليقها بالله تعالى بصفاته العظيمة الكاملة، ومن كان هذا هديه فسيكون حرًا لا يخاف من الطغاة، ولا تستهويه عطاياهم الفانية**

وفي الختام:

وبعد هذه الجولة في ثنايا هذا الأسلوب الذي يتبعه الطغاة في السيطرة على شعوبهم، لا بد من وضع معالم وإرشادات لمواجهته، للوقاية من أسبابه، ولمعالجة آثاره، وأهمها:

* اتباع الهدي القرآني في التربية، في تحريره للنفوس من الأوهام والمخاوف، وتعليقها بالله تعالى بصفاته العظيمة الكاملة، فقدرة الله غلبت كل شيء، وعلمه أحاط بكل شيء، وملكه عم كل شيء، ورحمته وسعت كل شيء، وهو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، وهو على كل شيء قدير، ومن كان هذا هديه فسيكون حرًا لا يخاف من الطغاة، ولا تستهويه عطاياهم الفانية.
* رفع الوعي المجتمعي بمخاطر الانسياق خلف الطغاة، وأساليبهم، وبث معاني الاحتساب والجهر بكلمة الحق، والاستعداد للبذل والتضحية في سبيل الحرية والكرامة والعدالة ونيل الحقوق، بالحكمة والتعقل الضامنَين عدم جر البلاد إلى ما لا تحمد عقباه.
* الحرصُ على التآلف والاجتماع ووحدة الكلمة، وهو من أعظم ما جاءت به الشريعة؛ إذ نهت عن التفرّق والاختلاف، ودعت إلى صيانة الأواصر واليقظة لكل ما يُضعفها أو يُفكّكها، فكلما كان المؤمنون كالجسد الواحد أكثر التحامًا وأقوى اتصالاً، كانوا أقدر على جلب المصالح ودرء المفاسد، وتمكّنوا من مواجهة الطغيان والاستبداد، والسير في إقامة شريعة الله سبحانه على الوجه الذي أمر به.

وهذه المعالم حري بها أن تكون نبراسًا يستضاء به في التربية والتعليم والتوجيه، في برامج المصلحين والمربين وأهل العلم والدعوة والكتابة والإعلام، صونًا للأمة وحماية لها من أساليب الطغاة وخططهم.

(١) مستفاد بتصرف من مقالة (الاستبداد وصناعة التخلف)، لإحسان الفقيه، موقع القدس العربي، ١٠ يونيو ٢٠١٨م، https://www.alquds.co.uk/%EF%BB%BFالاستبداد-وصناعة-التخلف/.

سنة الفلاح في القرآن الكريم.. المفهوم والسننية

د. فاطمة الزهراء دوقيه (*)

تعد سنة الفلاح من أعظم سنن الله في الحياة الإنسانية يصوغها القرآن وعدًا مشروطًا لا يُحابِي: من أخذ بأسبابه ظفر، ومن أعرض خسر. يكشف الكتابُ العزيز مقدماتها وشروطها، ويربطها بسلوك العباد فردًا وجماعة وأمّة؛ لتكون بوصلةً لنهضتهم واستخلافهم في الأرض. هذا المقال يبيّن مفهوم الفلاح ودلالته في الدنيا والآخرة، ويعرض أسبابه العملية كما يرسمها القرآن؛ ليكون وعيُ السنن مدخلاً لإقامة العدل والعمران والحياة الطيبة.

تقديم:

يعد البيان السنني للقرآن من مقاصده الكبرى التي نزل من أجلها: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]؛ فقد اعتنى بالسنن عناية فائقة ذكرًا وبيانًا، وتنبيهًا إلى أهميتها وفاعليتها، مع الحث على اكتشافها، والانطلاق منها في النظر والفهم، والعمل بمقتضياتها وتوظيفها في القيام بأعباء الاستخلاف والعمران في الأرض، والنصوص في ذلك كثيرة متنوعة الأساليب؛ وهو ما يعكس أهمية معرفتها والاعتناء بها علميًا وفكريًا، بما يتناسب مع حجم التركيز القرآني عليها، وموضوعاتها.

وفي مقالتنا هنا نتناول أعظم سنة إلهية اجتماعية، يحتاج المسلمون إلى فقهها، وتكوين ثقافتهم السننية عنها؛ ليحيوا وهي نصب أعينهم، جاعلينها غايتهم، وموجهةَ أعمالهم، فيستوفون شروطها وأسبابها، ويأتون بمقدماتها، وهي ما يمكن تسميتها بسنة الله في الفلاح الإنساني. فما مفهومها؟ وما سننيتها في القرآن؟

أولاً- تعريفات ومفاهيم:

١. **السنة الإلهية:** السنة بمعنى العادة والنهج[١]، والسيرة حميدةً كانت أو ذميمة[٢]، والطريقة

(*) دكتوراه في الدراسات الإسلامية، مجال الدرس القرآني والعمرا ن البشري - المغرب.

(١) ينظر: لسان العرب، لابن منظور (١٣/٢٢٥-٢٢٦).

(٢) المصباح المنير، للفيومي، ص (٢٩٢).

مرضية أو غير مرضية[١]، و«سنة الله» أحكامه وأمره ونهيه[٢].

وفي القرآن إعلام مكثف بأن لله سننًا ثابتةً وطرقًا مطردةً عامةً لا تتبدل ولا تتحول، متصلة بسلوك الإنسان وتصرفاته فردًا وجماعةً وأمةً، تتعلق بدين الله وأمره ونهيه ووعده ووعيده، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، ومعناها: عادات الله الجارية، وسيرته المألوفة وطرائقه الثابتة في معاملة عباده نتيجة سلوكهم وفعالهم[٣]. فسنّة الله «طريق عامة يجري بها أمره في عباده»[٤]، وتكون صيغتها شرطيةً تتركب من نتائج تقع كلما توفرت مقدماتها وانتفت موانعها، ولذا عرفها ابن تيمية بأنها «العادة التي تتضمن أن يُفعل في الثاني مثل ما فُعل بنظيره الأول، ولهذا أمر الله تعالى بالاعتبار... والاعتبار أن يُقرنَ الشيء بمثله فيُعلم أن حكمه مثل حكمه»[٥].

٢. **الفلاح:** له معنيان أصليان لغةً: الأول شَقٌّ، والثاني فوز وبقاء[٦]. والثاني هو ما يعنينا كما في استخدام القرآن وتركيبه؛ إذ هو النجاح و«الظفر وإدراك بغيةٍ، وذلك ضربان: دنيوي وأخروي، فالدنيوي: الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا، وهو البقاء والغنى والعزّ... وفلاح أخروي، وذلك أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل»[٧]. والقرآن شامل للضربين، بل ثمة آيات ذكرتهما معًا كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]؛ وقوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤].

٣. **التعريف التركيبي لسنة الفلاح:**

يورد القرآن موضوع الفلاح في الدنيا باللفظ والمعنى باعتباره سنةً ربانية مرتبطة بسلوك العباد، تقع ترتيبًا على سلوكهم المستقيم وأخلاقهم الحميدة وأعمالهم الإيمانية، أي أن الإنسان فردًا وجماعةً وأمة إذا خضع في حياته للإيمان في تصوراته وأفكاره وأعماله وسلوكه العام وكان حاله حال المؤمنين فـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾، أي يحقق نجاحه وسعادته في الدنيا من رفاهية ورقي وعز وقوة، ونحو ذلك من النجاحات في الدنيا، فضلاً عن الفلاح في الآخرة.

وأكبر تحدٍّ للأمة اليوم أن تتمكن من النجاح في تحقيق نهضتها الحضارية؛ بما فيه نجاحها في أداء المهمة الاستخلافية العمرانية في الأرض؛ أي تحقيق فلاحها الدنيوي الذي يمتلئ القرآن بالحديث عنه بمختلف الطرق والتعابير والأساليب، ولذا فهي بحاجة إلى إعمال هذه السنة الربانية بإيتاء أسبابها ومقدماتها، وتوفير عواملها التي بينتها الآيات الكثيرة سواء التي استخدمت لفظ الفلاح صراحة أو بالمعنى.

> **في القرآن إعلام مكثف بأنّ لله سننًا ثابتةً وطرقًا مطردةً عامةً لا تتبدل ولا تتحول، متصلة بسلوك الإنسان وتصرفاته فردًا وجماعةً وأمةً، تتعلق بدين الله وأمره ونهيه ووعده ووعيده**

ثانيًا: بيان سننية الفلاح:

أ. حيث لفظ الفلاح صراحةً:

بتتبعنا لهذه السنة الربانية العظيمة في كتاب الله العزيز، فإننا نلفى إقرارها يأتي بسبب الإيمان وأعماله؛ فتارة يذكره لفظًا مع بيانه بأعمال وخصال متنوعة، وتارة يقتصر على ذكر أعمال وفضائل تعلق بها الفلاح كأسباب وشروط ومقدمات اتصف بها الموعودون به، الذين يصل عددهم حسب صاحب البصائر إلى أربعة عشر، لكنا وجدناهم -بالتدقيق والمراجعة- اثنا عشر فقط؛ باعتبار استعمال لفظ الفلاح، ومراعاةً لمعيار

(١) التعريفات، للجرجاني، ص (١٠٥).
(٢) ينظر: لسان العرب (١٣/ ٢٢٥).
(٣) علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، لرشيد كهوس، ص (٢٢).
(٤) مفردات القرآن، للفراهي، ص (١٩٦).
(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٣/١٩-٢٠).
(٦) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٤/٤٥٠).
(٧) مفردات ألفاظ القرآن، للأصفهاني، ص (٦٤٤).

التصنيف في الصفة نفسها، وهم مع التصرف بترتيبهم بطريقة نحسبها منطقية[١]:

» المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١].

هذه الآية هي الجامعة اللامَّةُ لسنة الله في الفلاح المقررة قرآنيًا، بل هي التي تبرز عظمَ شأنها؛ فقد خصت بالافتتاح لسورة «الْمُؤْمِنُونَ» بأسلوب جامع بديع؛ «لأنه من جوامع الكلم؛ فإن الفلاح غاية كل ساع إلى عمله»[٢]، بل ومقصود السورة اختصاص المؤمنين بالفلاح[٣]، أو الفتوى بفلاح المؤمنين[٤]، بشارةً من الله ليؤكد بها سبحانه فلاح المؤمنين في الدنيا والآخرة، وهذه البشارة مترتبة على سلوكهم الصالح والمستقيم المتمثل فيما «تحلَّوا به من أصول الفضائل الروحية والعملية التي بها تزكية النفس واستقامة السلوك»[٥]، وهو ما يجمله وصف الله تعالى لهم «بوصف الإيمان للإشارة إلى أنه السبب الأعظم في الفلاح، فإن الإيمان وصف جامع للكمال لتفرع جميع الكمالات عليه»[٦]. ومما فرعه تعالى عليه وصفهم بالخصال والأعمال بعد البشارة: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ٢-١٠].

» المتقون: ﴿الم ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥].

وهنا تأتي جامعة «التقوى» سببًا للفلاح والفوز بالمحبوب، وهي تعبير آخر جامع للإيمان، وهي أساس الخير، وبالمعنى الشرعي هي جماع الخيرات[٧]، بيّنتها الآيات بعقائد وأعمال باطنة وظاهرة[٨]، هي مفردات لسمة المتقين، التي تشكل لهم «الوحدة الشعورية الإيجابية الفعالة، الوحدة التي تجمع في نفوسهم بين الإيمان بالغيب، والقيام بالفرائض، والإيمان بالرسل كافة، واليقين بعد ذلك بالآخرة. هذا التكامل الذي تمتاز به العقيدة الإسلامية، وتمتاز به النفس المؤمنة بهذه العقيدة، والجدير بأن تكون عليه العقيدة الأخيرة التي جاءت ليلتقي عليها الناس جميعًا، ولتهيمن على البشرية جميعًا، وليعيش الناس في ظلالها بمشاعرهم وبمنهج حياتهم حياة متكاملة، شاملة للشعور والعمل، والإيمان والنظام»[٩].

» المطهَّرون المتزكون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤]، و﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]. تجمل هاتان الآيتان بطريقة جامعة كذلك سنة الله في فلاح الإنسان ونجاحه لتزكيه، أو بلوغه حالة الزكاة: ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٣]، ﴿خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً﴾ [الكهف: ٨١]؛ أي طهارةً ونقاءً، كما أنها «شرف الخُلُق والوقار والسكينة المنطوية على خير»[١٠].

والتزكية مفهوم قرآني مركزي وكلي، معبِّرٌ عن حالة صياغة الإنسان بالتقوى والإيمان، وترقيه في سلم كمال قوتيه العلمية والعملية[١١]، ومعناها: «إكساب الزكاة، وهي نماء النفس... وأصل التزكية

(١) بصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي (٢/١٨٠-١٨٢)، بتصرف وتدقيق. ويبدو -والله أعلم- أن المؤلف قد اختلط عليه الأمر مرتين؛ الأولى: حين استدل بآية: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [النور: ٥٢]، كتب «المفلحون» عوض «الفائزون»، فلم نعتمد ذلك. والثانية: سمى الصنف الرابع عشر: «المؤدين لفرض الزكاة»، لقوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} [الشمس: ٩]، الذي لم يرد في أداء الزكاة، ولعله قصد قوله: {الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} [الليل: ١٨]، الذي لم يرد فيه لفظ الفلاح، إلا في معناه في الآية التي تسبقها: {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى} [الليل: ١٧].

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٨/١٨).

(٣) نظم الدرر، للبقاعي (١٠٥/١٣).

(٤) بصائر ذوي التمييز (٣٢٩/١).

(٥) التحرير والتنوير (٦/١٨).

(٦) المرجع السابق (٨/١٨).

(٧) المرجع السابق (٢٢٨/١).

(٨) يراجع: تفسير السعدي، ص (٢٩).

(٩) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٣٩/١).

(١٠) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٥٣٦/٣).

(١١) يراجع: التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ص (١٣٦).

نفي ما يستقبح قولاً أو فعلاً»[1]. فهي تلك العملية الإصلاحية للنفس تنقيها وتطهرها من شوائبها بالإيمان والتقوى، ولنقل بمنظومة الإيمان المتكاملة من عقائد وعبادات وأخلاق وطاعات. فموضوعها إصلاح النفس وتأهيلها لـ«يخلص صاحبها في تحمل كل ما يجب أن يتحمله في جنسه من المهام والواجبات المختلفة»[2]. فبمقدار ما تصلح تلك النفس وتزكو؛ يغدو صاحبها مصلحًا في الأرض، معمرًها بالخير والهدى، وهذا عين الفلاح في المعاش.

» المتبعون للرسول ﷺ: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. هنا وعدٌ ربانيٌّ بالفلاح نتيجة ما لا يتم الإيمان بالله ولا يُعرَف طريقه إلا به، وهو اتباع الرسول ﷺ واتباع ما أنزل معه المسمى نورًا؛ «وهو القرآن الذي يستضاء به في ظلمات الشك والجهالات، ويقتدى به إذا تعارضت المقالات، أولئك هم المفلحون الظافرون بخيري الدنيا والآخرة، والناجون من شرهما، لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح. وأما من لم يؤمن بهذا النبي الأمي، ويعزره، وينصره، ولم يتبع النور الذي أنزل معه، فأولئك هم الخاسرون»[3].

» المطيعون: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

وهنا تتحدد صفة السمع والطاعة لتجسد معنى الاتباع؛ فالمتحلون بهما المستمدّون قوّتهم المطلقة من الثقة بأن حكم الله ورسوله هو الحكم وما عداه الهوى، المنطلقون من التسليم المطلق لله، ومن الاطمئنان إلى أن ما يشاؤه للناس خير مما يشاؤونه لأنفسهم: ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ لأنهم المستقيمون على منهج الله الواضح أمامهم الذي لا عوج فيه ولا التواء، المطمئنون إليه، الماضون فيه بلا تخبط ولا حيرة، والمتسِمُون تبعًا بما يلي من الخصال:

» المخلصون: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨]. وها هنا شرط الإخلاص الذي بدونه لا قبول عند الله، بل تفقد كل الأعمال روحها ومعناها؛ فهو أعظم شروط النجاح والفوز بالمطلوب في كل ما يعمله العامل ويبذله؛ لما يشكله من قوة الدفع للفعل وحافزية العمل، بل والإحسان فيه.

» المكثرون من الحسنات: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]، ترغّب هذه الآية المؤمنين في توفير سمة لازمة للمؤمنين، وهي الإكثار من البذل في الإيتاء بالأعمال الصالحة واعدًا إياهم بالفلاح والفوز، وقد قيل إنّ «الموازين هي الأعمال الحسنة فمن أتى بما له قدر وخطر، فهو الفائز الظافر»[4]. فالحديث عن الحسنات والإكثار منها هو عن العمل الصالح قرين الإيمان، مُظهِره ومُتمِّمه، الذي يمثل «الترجمة العملية والتطبيق الأكمل للعلاقات التي حدّدتها فلسفة التربية الإسلامية بين الإنسان والخالق، والكون والحياة، والإنسان والآخرة»[5]، بمعنى أن الأعمال الصالحة متنوعة صورها، متسعةٌ دوائرها؛ إذ الهدي الرباني تشريع شاملٌ «يتناول جميع فعاليات الإنسان الدنيوية والأخروية، وجميع وجوه سلوكه من السلوك الروحي إلى السلوك الاقتصادي، إنّ الإنسان القرآني هو كلٌّ عضوي روحي حيّ، وسلوكه متكامل يهدف وجهة علوية هي السعادة الدنيوية والأخروية»[6].

» المحسنون: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان: ٣-٥]. لا شك أن الإكثار من الحسنات صفة محمودة، لكن الأحمدَ غايةً الحسن فيها، أي الإحسان كما تتحدث الآية، وهو إتقان

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، ص (٩٦).
(٢) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، للبوطي، ص (٢٥-٢٦).
(٣) تفسير السعدي، ص (٣٦٤).
(٤) تفسير الرازي (٢٣/٢٩٥).
(٥) مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح، لماجد عرسان الكيلاني، ص (٤٢).
(٦) الإسلام والإنسان، لحسن صعب، ص (٩٥).

العمل وإتيانه على أكمل وجه وأحسن هيئة، فـ«هو البلوغ إلى الغاية في حسن العمل»[١]. والمحسنون هم «الفاعلون للحسنات، وأعلاها الإيمان وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولذلك خصت هذه الثلاث بالذكر بعد إطلاق المحسنين لأنها أفضل الحسنات، وإن كان المحسنون يأتون بها وبغيرها»[٢].

» دعاة الخير: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فقد وُعد المتصفون بخصلة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأنهم «المختصون بالفلاح الكاملون فيه الفائزون»[٣]، ووجودها يعني وجود الدور الرقابي للأمة في المجتمع، الذي لا تخفى محوريته في إصلاحها ونهوضها الحضاري. وقد مدحها القرآن كصفة لازمة لجماعة المؤمنين: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، بها تكتسب الخيرية من بين الأمم والشهود على الناس: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وما هذه الخيرية إلا تكليفٌ إصلاحي ثقيلٌ، يقتضي القيام «على صيانة الحياة من الشر والفساد... فهو النهوض بتكاليف الأمة الخيِّرة، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب، وبكل ما في طريقها من أشواك...كل هذا متعب شاق، ولكنه كذلك ضروري لإقامة المجتمع الصالح وصيانته؛ ولتحقيق الصورة التي يحب الله أن تكون عليها الحياة»[٤].

وإذا فرَّط المؤمنون في هذه الخصلة وأهملوها؛ حُرموا مدحَ الله وثناءه وإفلاحه لهم، وبتعبير القرطبي: «فإذا تركوا التغيير وتواطؤوا على المنكر، زال عنهم اسم المدح، ولحقهم اسم الذم، وكان ذلك سببًا لهلاكهم»[٥]، وبتعبير الغزالي: «ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد وهلك العباد»[٦]؛ ولذا نجد أنّ الله سبحانه يتوعد من يهمل هذه الخصلة بالخسر بقوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]؛ حيث تتقرر مسؤولية الإنسان الاجتماعية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأداء حق المجتمع من التواصي بالحق.

» المجاهدون: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: ٨٨].

في هذا الموضع يقرر سبحانه صفة إيمانية أخرى جامعةً لشروط وأسباب الفلاح، التي لن يتحقق فلاح المسلمين بدونها، إنها صفة الجهاد بالمال والنفس بمعناه الواسع من العطاء وبذل الوسع في كل ميادين الحياة وأنشطتها؛ إذ تثني الآية على الذين «نهضوا بتكاليف العقيدة، وأدوا واجب الإيمان؛ وعملوا للعزة التي لا تنال بالقعود، ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾: خيرات الدنيا والآخرة، في الدنيا لهم العزة ولهم الكرامة، ولهم المغنم ولهم الكلمة العالية، وفي الآخرة لهم الجزاء الأوفى، ولهم رضوان اللّه الكريم، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، الفلاح في الدنيا بالعيش الكريم القويم والفلاح في الآخرة بالأجر العظيم»[٧]. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]؛ حيث سنة الله في الفلاح جلية؛ إذ يعد عز وجل المؤمنين الباذلين كل وسعهم فيما يرضي ربهم بأن يزيدهم «هداية إلى سبل الخير وتوفيقا لسلوكها»[٨].

» الواقون أنفسهم من الشح: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. يمكن أن نقول: إن الحديث في الآية عن وصف دقيق لحال المتصف بكل الصفات الإيمانية السابقة، بأنها حال الواقي نفسه من الوقوع في المحذور،

(١) نظم الدرر (٣٩٨/١).
(٢) التحرير والتنوير (١٤١/٢١).
(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، للقنوجي (٣٠٥/٢).
(٤) في ظلال القرآن (٤٤٧/١).
(٥) تفسير القرطبي (٦٦٤/٥).
(٦) إحياء علوم الدين، للغزالي (٣٠٦/٢).
(٧) في ظلال القرآن (١٦٨٥/٣).
(٨) تفسير الآلوسي (١٤/٢١).

من البخل الشديد بهذا الفعل وذلك البذل، وكل تلك الخصال والفعال، وقد ذم تعالى من يشح على الخير غاية الذم بتعبير: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ [الأحزاب: ١٩]، وهو المراد منهم؛ «وهذا شر ما في الإنسان، أن يكون شحيحًا بما أمر به؛ شحيحًا بماله أن ينفقه في وجهه، شحيحًا في بدنه أن يجاهد أعداء اللّه أو يدعو إلى سبيل اللّه، شحيحًا بجاهه، شحيحًا بعلمه، ونصيحته ورأيه»[١]، وغير ذلك من وجوه الشح.

وقد علقت الآية النجاح على حالة وقاية الإنسان نفسه من شحها على الخير والعطاء؛ «فإنه إذا وقي العبد شح نفسه؛ سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله ﷺ ففعلها طائعًا منقادًا، منشرحًا بها صدره، وسمحت نفسه بترك ما نهى الله عنه وإن كان محبوبًا للنفس تدعو إليه وتتطلع إليه، وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز. بخلاف مَن لم يوق شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير الذي هو أصل الشر ومادته»[٢]؛ ما يوقعه في حال أهل الباطل، فيحرمه أن يكون من أنصار الحق المفلحين، الذين هم:

» حزب الله: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. ويأتي هذا الجزء من الآية في سياق التمييز بين فريق الحق والإصلاح وفريق الباطل والإفساد، سمي الأول حزب الشيطان وتوعده بالخسران: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، والثاني حزب الله أي أنصاره[٣]، يعدهم سبحانه بالفوز لأنهم الفريق المهتدي بهدي الله، المحقق لمنهجه، الفاعل في الأرض ما قدره وقضاه[٤]. وهو المعنى الذي تحدثت عنه مباشرة آيات نصر الله لمن ينصره: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

فالخلاصة إذن، أن في جميع مواضع ذكر الفلاح لفظًا يبشر الله سبحانه الموصوفين بتلك الأعمال والفضائل الإيمانية بسنته العادلة والثابتة التي لا محاباة فيها، وهي إفلاحهم وإنجاحهم وإدراكهم مطالبهم، ولا سبيل لهم إلا ذلك، وإلا فالخسران والخيبة، لقوله السنني الجازم: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ١٠].

«إذا وُقيَ العبد شحّ نفسه؛ سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله ﷺ؛ ففعلها طائعًا منقادًا، منشرحًا بها صدره، وسمحت نفسه بترك ما نهى الله عنه وإن كان محبوبًا للنفس تدعو إليه وتتطلع إليه، وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز»

السعدي رحمه الله

ب. حيث الفلاح معنىً:

تكثر الآيات القرآنية التي تتحدث بالمعنى عن نجاحات ومطالب، ومرادات ومقاصد، مع بيان عواملها وأسبابها إرشادًا وترغيبًا في الإتيان بها، فنسلط الضوء خاصة على ما يعالج مسألة الفلاح الدنيوي وعمارة الأرض؛ حيث يمثل «العمل والإنتاج والتنمية والتحسين في واقع الحياة الدنيا... فريضة الخلافة في الأرض. والإيمان والعبادة والصلاح والتقوى تمثل الارتباطات والضوابط والدوافع والحوافز لتحقيق المنهج في حياة الناس.. وهذه وتلك معًا هي مؤهلات الفردوس الأرضي والفردوس الأخروي معًا»[٥]. وأبرز هذه الآيات:

» ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]، فالآية تتحدث عن نجاحات الدنيا المادية وسعاداتها، بالتمتع بطيباتها وخيراتها، بتعبير: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ المفيد معنى سعة الرزق، ورغد العيش، والخير والعمار والرخاء الذي يصيب الناس، مقيَّدًا بإقامة منهج الله واتباع شرعه في الحياة. فالآية تقرر هذه الحقيقة الضخمة في الحياة الإنسانية التي تظهر فيها اليوم الحاجة ماسة إلى جلائها؛ إذ الموازين فيها مختلة، والأوضاع مضطربة، والبشرية حائرة بين ضباب التصورات وضلال المناهج[٦].

(١) تفسير السعدي، ص (٧٧٦).
(٢) المرجع السابق، ص (١٠٠٣).
(٣) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، للأصفهاني، ص (٢٣١).
(٤) ينظر: في ظلال القرآن (٣٥١٥/٦).
(٥) في ظلال القرآن (٩٣٢/٢).
(٦) ينظر: في ظلال القرآن (٩٣٠/٢).

» ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. إن هنا تأكيدًا وترسيخًا لـ«قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله، ومن سنة الحياة... وما من أمة قام فيها شرع الله، واتجهت اتجاهًا حقيقيًا لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبئ عن خشية الله... ما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته، فحققت العدل والأمن للناس جميعًا؛ إلا فاضت فيها الخيرات، ومكن الله لها في الأرض، واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح سواء»[١].

» ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، يعِدُ سبحانه بأعظم نجاح يطمح إليه الإنسان في الدنيا، وهو العيش الكريم، والحياة السعيدة الطيبة التي تشمل كل وجوه الراحة من أي جهة كانت[٢]. وذلك بشرط الإيمان وأعماله كما تقيد الآية.

» ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]. وهذه الآية حوت وعدًا «من أوعاده الصادقة، التي شوهد تأويلها ومخبرها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكِّنُ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام... وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه، إلا بأذى كثير من الكفار»[٣].

» ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢]. هنا بيان جلي للارتباط السببي بين الاستغفار النابع من الإيمان، وبين تيسير الأرزاق، وانفتاح أبواب الخيرات والخصب والغنى.

وهكذا، يقيم القرآن قِرانًا وثيقًا بين الإيمان والفلاح الدنيوي، بين النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة، كأقوم نهج، وأصح سبيل موصل إلى إعمار الأرض والحياة الطيبة، وعدًا صادقًا منه سبحانه. فهذه حقيقةٌ لا مجال معها للادعاء بالفصام بينهما، وبألا علاقة للإسلام بالتنمية والتقدم المادي. وليس واقع المسلمين المتخلف اليوم الشاهد بالفصام النكد بحجة، بل «عصور إيمانهم الحقيقي هي الحجة على أثر الإيمان في تزكية العمل، وذلك حينما اتجهوا بإيمانهم الحق يصنعون الأعمال في كل مجال من مجالات الحضارة... فإذا أعمالهم تلك تبلغ من الرشد والفعالية ما تجاوز نفعه خاصة دائرتهم إلى محيط البشرية كلّها»[٤].

يقيم القرآن قِرانًا وثيقًا بين الإيمان والفلاح الدنيوي، بين النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة، كأقوم نهج، وأصح سبيل موصل إلى إعمار الأرض والحياة الطيبة، وعدًا صادقًا منه سبحانه

خاتمة:

وهكذا، فإن سنة الله في الفلاح الإنساني المجملة في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، وعدٌ ربانيٌ للإنسان -فردًا وجماعةً وأمةً- ثابتٌ لا يتخلف؛ بأنه بالغٌ مطامحه من الخيرات والسعادات، ظافرٌ بالحياة الطيبة؛ ما اتبع الهدي الرباني. وقد صاغها القرآن بصياغات متعددة، تضافرت لتوجيه الإنسان الوجهة الصحيحة في الحياة؛ ترغيبًا في الخير، وتشويقًا لنفسه وتعليقها ببشارة الفلاح العظيم على ما يتحلى به من الإيمان، وخصال الاستقامة والصلاح والإصلاح.

وهذا ما يبرز لنا وظيفة السننية القرآنية التوجيهية الإصلاحية للإنسان ضمن وعيه بهذه السنة؛ فحين يريد الفوز والنجاح، فإنه يعي ما عليه عمله من توجيه كل طاقاته إلى إعمال شروطها وتوفير أسبابها.

(١) المرجع السابق (٦/٣٧١٣).
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/٦٠١).
(٣) تفسير السعدي، ص (٦٧٠).
(٤) الإيمان والعمران، إسلامية المعرفة (الفكر الإسلامي المعاصر حاليًا)، عبد المجيد النجار، ع٨، أبريل ١٩٩٧م، ص (٦٦-٦٧).

قراءة في كتاب (محركات الأفكار.. تنقيب في الجذور ورصد للمنابع)

محمد سعيد العامري (*)

الفكرة أكبر مما تبدو عليه، فخلف الأفكار محرِّكات كثيرة، ودوافع متعددة، ترسم الطريق، وتحدِّد الوجهة، ودون معرفتها تظل الفكرة مجهولة السِّياق، ودون السياق لا سبيل إلى الفهم.

تعريف بالمؤلف:

المؤلف هو الدكتور عبد الرحمن بن ناصر الريّس، أستاذ بجامعة الملك فيصل في السعودية، متخصِّص في سيكولوجيا الأفكار ونشأتها لدى الأفراد والمجتمعات، والكتاب الذي بين أيدينا رسالته للدكتوراه بعنوان: (دوافع الأفكار وآثارها الثقافية) في قسم الثقافة الإسلامية، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ويقع في ٣٧٠ صفحة من طباعة مركز تكوين للدراسات والبحوث.

هدف الكتاب:

شهد الفضاء الفكري العربي انقسامات متعدّدة، وموجات من الصدام الثقافي والأدبي، نتج عنها أطروحات متباينة في العقيدة وأصول الدين، والتراث الإسلامي، وقد حفّز ذلك المؤلف إلى تتبع هذه الاتجاهات ومحاولة رسم خريطتها الفكرية والفلسفية، ثم تبيَّن له أثناء ذلك أنَّ بعض الأفكار التي شغلت الباحثين والمفكِّرين لم يكن باعثها والمحرِّك إليها هو الاجتهاد العلمي المحض، بل أمر

(*) ماجستير في اللسانيات العربية.

آخر بعيد كل البعد عن الفكرة ذاتها، وإن تلبَّس صاحبها بالموضوعية وقدَّمها في صورة الرأي الفكري، ومِن ثَمَّ رأى المؤلف ضرورة البحث في محرِّكات الأفكار للمشتغل بالمذاهب العقدية والآراء الفكرية، وهو ما سعى لتفصيل الكلام فيه في هذا الكتاب.

محتوى الكتاب:

رصد المؤلف في كتابه أهم محرِّكات الأفكار، وهي الدوافع العميقة التي تقف خلف الفكرة، وتسبق ظهورها، من مؤثِّرات نفسية أو عقلية أو خارجية تُنشئ تلك الفكرة ابتداءً، أو توجِّه الذهن إليها وتدفعه إلى الانحياز لها. كما عُنِيَ المؤلف بإيراد الشواهد لتلك المحرِّكات، وبحث الاعتبار الشرعي لكل منها.

وقد قسَّم الكاتب محرِّكات الأفكار إلى:

١. محركات نفسية.
٢. محركات عقلية.
٣. محركات خارجية.

ثم ختم الكتاب بمقالين:

» محركات الأفكار والخطابات الحداثية المعاصرة.

» اعتبار المحركات في القراءة الفكرية.

> **بعض الأفكار التي شغلت الباحثين والمفكِّرين لم يكن باعثها والمحرِّك إليها هو الاجتهاد العلمي المحض، بل أمر آخر بعيد كل البعد عن الفكرة ذاتها، وإن تلبَّس صاحبها بالموضوعية وقدَّمها في صورة الرأي الفكري**

المحركات النفسية:

تناول المؤلف في هذا القسم خمسة محرِّكات، وهي: الهوى، والكبر والحسد، والعواطف والمشاعر، والفتور والكسل، والوازع الإيماني.

المحرك الأول/ الهوى:

بدأ به المؤلف لأنَّه الأصل الذي تعود إليه جميع المحرِّكات النفسية، فبيَّن أنَّ الإنسان قد يميل إلى فكرةٍ -حقًّا كانت أم باطلاً- لا لذاتها بل لأنَّها وافقت هوىً في نفسه، وأشبعت حاجة فيها.

وقد تردَّدت مفردة الهوى في النصوص الشرعية كثيرًا، بما يدل على اعتناء الشرع بهذا المحرّك والتنبيه على مآلاته الخطيرة؛ كتسمية ما خالف الحق بالهوى، والتحذير المتكرِّر من مطاوعة الهوى واتباعه، واعتباره وثنًا يُعبَد من دون الله تعالى.

وقد أورد الكاتب العديد من أقوال أهل العلم في بيان أثر الهوى في الجانب العلمي والفكري، مع أمثلة عليها.

المحرك الثاني/ الكبر والحسد:

فالكبر حالة تعتري الإنسان لتحول بينه وبين الأفكار والآراء والمعتقدات، وتكون هذه الحالة كذلك محرّكًا لنشوء الأفكار في عقلية المستكبر، وبدون هذه الحالة قد لا يكون لهذه الأفكار وجود وحضور في عقلية صاحبها فضلاً عن وجودها في الفضاء الفكري العام.

أمّا الحسد فهو يحرف الفكر عن الوجهة العلمية إلى شخص المحسود؛ فلا يقتصر ضرره على أعيان المسائل، بل على المنهج العلمي والفكري؛ لأنه ينقل محور البحث من الأفكار والآراء إلى الذوات والشخوص، كما يؤدي إلى انتزاع أخلاقيات المثاقفة والتعلم، وغياب أخلاق أهل العلم.

وكم أُلبِس الكبر والحسد لبوس العلم والنصح، وكم شُغِلَت الساحة العلمية بردود ومخاصمات ظاهرها الانتصار للحق، وباعثها الحقيقي هو الكبر والحسد!

هذا المحرِّك من أشد المحرِّكات خطرًا وأعمقها أثرًا؛ لأنَّه لا يقود إلى رفض فكرة معينة فحسب، بل إلى حرمان صاحبه النهج الصحيح للتفكير والبحث: إذ إنَّ الكِبر يدفع المتكبر إلى أن يتطبَّع على مدافعة الحقائق والانحياز لحظوظ النفس، فيؤثر ذلك في مزاجه وقدرته على النظر والموازنة بين الأفكار، ويغدو كثير من آرائه أشبه بالأمراض الفكرية والأدبية، وإن أخرجها في صورة الأطروحات العلمية. والحسد هو أساسُ كثير من المعارضات العقدية ودافعها الرئيس، وهو سبب الضلال اليهودي، ومكوِّن عميق في الهُوية النفسية للمنافقين.

ونظرًا لما لهذا المحرِّك من خطر عظيم فقد جاءت الشريعة الإسلامية بما يحذر منه ومن عواقبه؛ فجعلت الكِبر مقابلاً للإيمان؛ إذ لا يستقر

المحركات الخارجية لنشوء الأفكار

الإيمان في قلب امتلأ كبرًا وعلوًّا، كما دلَّت النصوص الشرعية على أنَّ الكبر يحجب عن القلب نور الحق، ويحرمه أدلة اليقين، وبيَّن القرآن الكريم مرارًا أنَّ الكِبر إمامٌ يُورد صاحبه مهاوي الضلال.

> **قد ينحاز المرء إلى الفكرة لا لذاتها، بل لموافقتها هوىً في نفسه، كما يحجب الكِبر والحسد صاحبَهما عن النهج الصحيح للتفكير؛ إذ يدفعانه إلى مدافعة الحقائق والانحياز لحظوظ النفس، حتى تُخرِج هذه الدوافعُ الآراءَ في صورة علمية وهي أقرب إلى الأمراض الفكرية**

المحرك الثالث/ العواطف والمشاعر:

قد ينحاز المرء إلى الفكرة لاحتكامه لشعوره وإحساسه أن هذا ما يناسب الموقف، دون استناد إلى العقل والنظر، فتكون سجيَّته وطبعه هي التي تولِّد هذا الإحساس ومن ثم القبول أو الرفض للأفكار.

وإذا كانت العاطفة قد تُستَغل لإنشاء أفكار منحرفة فإن الشريعة الإسلامية اعتبرت هذا المحرّك وضبطَتْه من جهة أخرى؛ فحثّت على الرفق والإحسان والتواضع وخفض الجناح، وجعلت للمشاعر دورًا في ترقيق القلوب وتوجيه الفطرة، وأكّدت مواساة المؤمنين وتثبيتهم وطمأنتهم بصدق موعود الله وحسن العاقبة.

المحرك الرابع/ الفتور والكسل:

إذا كان النظر والتفكير حالةً من النشاط العقلي؛ فلا شك أنَّ للكسل والفتور أثرًا كبيرًا فيها؛ فقد يُقعِد الكسلُ الإنسان عن إعادة النظر في قناعاته وأفكاره، فيُغلِق كل نوافذ الحوار إليها، ويتهرَّب من فتح أي مناقشة لها.

وقد يتشبَّث الرجل برأي ويتعصَّب له ليس لكسله عن البحث والنظر، بل لأنَّ الأخذ بخلافه يُلزِمه بما يستثقله، ويراه شاقًّا عليه.

وتُبيّن النصوص الشرعية خطورة هذا المحرّك؛ إذ أمرت بمجاهدة الكسل، والاستعاذة من العجز، ووصفت المنافقين به، ووجّهت المؤمن إلى عدم الاستسلام لما يطرأ منه عليه.

المحرك الخامس/ الوازع الإيماني:

ختم المؤلف المحرِّكات النفسية بالوازع الإيماني، فبيَّن أنَّ أصل هذا المحرِّك هو حاجة النفس للإيمان والتدين؛ إذ تلح على النفس البشرية أسئلة وجودية كبرى، وتتحرَّق الروح الإنسانية لمعرفة ما بعد

الفناء، ومصيرها الأخير بعد الموت؛ فالنفس الإنسانية مجبولة على الإيمان والبحث عن حقيقة الوجود والحكمة من الخلق، وفي أعماقها مكنون يدفعها للميل إلى سلوك الظاهرة الدينية، والقناعة بعموم الأفكار الملبية لهذا المكنون.

ثم ساق المؤلف بعض الأدلة على اعتبار الشريعة الإسلامية لمحرِّك الوازع الإيماني، كلجوء الإنسان إلى الله في مواطن الشدة والخوف، وحكاية الصراع العقدي بين الكفر والإحساس الإيماني العميق، وانتهاء ذلك إلى الإقرار بحقيقة الألوهية، وكاستثارة العقل الإنساني لإعادة النظر في قناعاته العقدية وما ورثه عن الآباء من تصورات دينية، وإقامة الحجة على من حاوَلَ إشباع حاجته إلى التدين باتباع الأوهام، والتعبد لغير الله عزَّ وجلّ.

> **في النفس البشرية مكنون يدفعها للميل إلى سلوك الظاهرة الدينية، والقناعة بعموم الأفكار الملبية لهذا المكنون**

المحركات العقلية:

وهي خمسة أيضًا: التصور المادي، والجهل المعرفي، وتحرر العقل والاعتداد به، والتباين والتفاوت المنهجي، والغموض في الأفكار وأساليب طرحها.

المحرك الأول/ التصور المادي:

يتمثل هذا المحرِّك في الانطلاق من معطيات الواقع وتغليبها على المعاني الروحية، وذلك بإعطاء المَدَنِية والعُمران والنهضة أولوية حيوية، والسعي الحثيث لتحقيق الرفاهية، وتقليل الأطروحات الروحية مقابل الميل إلى العقلنة والبراهين العلمية، وتجاوز حاكمية التراث، والتحرُّج من الأحكام الشرعية التي تغض من القيم المادية أو تنافيها.

والانطلاق من هذا المحرِّك يوصل إلى غايات بعيدة عن مقاصد الشريعة الإسلامية التي جعلت الأولوية للدار الآخرة، وصرَّحت بأنَّ الإيمان هو المعيار الحقيقي عند الله وإنْ حرم صاحبه التفوق المادي والغلبة الحضارية، كما حرصت على تربية المسلم على القيم الروحية والمعنوية، ومجاهدة المغريات المادية والانتصار عليها.

المحرك الثاني/ الجهل المعرفي:

المعرفة عملية تراكمية لها أثر كبير في توجيه الفكر وتصحيح طرق النظر والاستدلال، وإذا كان الأمر كذلك فلا شكَّ أنَّ الجهل في جزئية معينة -سواء جهلاً في التصوُّر أو قصورًا في النَّظر العقلي والعلمي- يُؤثِّر في حركة الأفكار وتوجيهها.

وفي الشريعة الإسلامية ما يدل على خطر هذا المحرِّك وقوة تأثيره؛ كالأدلة الكثيرة في ذم الجهل، والتحذير من عواقبه، والحث على العلم، ورفع منزلة العلماء وطلاب العلم، والدعوة إلى السير في الأرض، والتفكر في خلق الله، وملكوت السماوات والأرض.

المحرك الثالث/ تحرر العقل والاعتداد به:

يُقصَد بهذا المحرِّك أن يكون منشأ الفكرة أو أساس قبولها هو تطبُّع العقل على تحرُّره غير المنضبط في المنهج والتفكير، والثقة المفرطة به وبأحكامه، ولا يتعلق ذلك بأيديولوجية محددة؛ فقد ينطلق من هذا المحرِّك مَن ليس عقلاني المنهج والفكر.

ومن أبرز أمثلة هذا المحرِّك: ما انتهى إليه المعتزلة من آراء عقدية بسبب تقديمهم لعقولهم على النقل والخبر النصي.

وقد عُنِيَت الشريعة الإسلامية بهذا المحرِّك؛ فدعت إلى إعمال العقل والتفكر في النفس والمظاهر الكونية في مساحات شرعية محددة منضبطة، محذرة من أن يقدَّس فيقدَّم على ما هو أولى منه، ونعت صنيع مَن عطَّلوا عقولهم للتقليد والإمَّعة، كما بيَّنت المنهج الصحيح للتعامل مع ما يطرأ على العقل من تساؤلات أو شبهات عقدية.

المحرك الرابع/ التباين والتفاوت المنهجي:

تناول المؤلف هنا أثر المناهج الفكرية في تحريك الأفكار وتوجيهها؛ إذ لا ينفك العقل عن الرجوع إلى أصوله المعرفية ومسلَّماته الأولى، ومن هنا ينشأ الانحياز الفكري إلى ما يوافق المنهج الكلي والأطر العامة؛ بحيث يميل المرء إلى بعض الأفكار لأنَّها تتوافق مع نموذجه المعرفي العام، ومنهجه الفكري الكلي، لا بالنظر لذات الفكرة.

وقد اعتبرت الشريعة الإسلامية هذا المحرِّك؛ من خلال مراعاة استحضاره في الدعوة، وما يقتضيه ذلك من تنويع الخطاب، والتدرج فيه، وبما شرعته

من مجاراة للمناهج المختلفة في مقام الحوار والجدل، وبما قدَّمته من حجاج يراعي الأصول المنهجية لغير المسلمين وغير ذلك.

المحرك الخامس/ الغموض في الأفكار وأساليب طرحها:

كثيرًا ما يكون سبب الاقتناع بالفكرة هو أسلوب تقديمها وليس الحجة التي قامت عليها، وكثيرًا ما تُطرَح الأفكار في أساليب غامضة لتهويلها في قلوب القراء، وإشعارهم بعُمق لا وجود له، وبذلك تجد طريقًا إلى التأثير فيهم.

وقد راعَت الشريعة أثر الأسلوب وطريقة العرض في بيان الأحكام والتعامل مع المخالفين، لما لهذا الأسلوب من دور كبير في توجيه أفكار الناس ومعتقداتهم، كما نبَّه القرآن الكريم على الأثر العميق لزخرف القول وخطر الكلمة على الوعي، وسطوتها على القلب.

كثيرًا ما يكون سبب الاقتناع بالفكرة هو أسلوب تقديمها وليس الحجة التي قامت عليها، وكثيرًا ما تُطرَح الأفكار في أساليب غامضة لتهويلها في قلوب القراء، وإشعارهم بعُمق لا وجود له، وبذلك تجد طريقًا إلى التأثير فيهم

المحركات الخارجية لنشوء الأفكار:

ذكر منها المؤلف اثني عشر محرِّكًا، وقسمها إلى أربعة أقسام:

- الأول: المحرِّكات الكونية، وتشمل: سنة الابتلاء، وسنة التغيير والمداولة، وسنة التدافع.
- الثاني: المحرِّكات الاجتماعية، وتشمل: الظرف الاجتماعي، وسلطة الأقران، والعصبية للقبيلة والأشياخ.
- الثالث: المحرِّكات الاقتصادية، وتشمل: الفقر، والاسترزاق المعيشي، والجشع والطمع.
- الرابع: المحرِّكات السياسية، وتشمل: الغلبة الحضارية، والظلم والجور، والتغيرات السياسية.

المحرك الأول/ سنة الابتلاء:

بيَّن المؤلف في هذا المحرِّك أنَّ الخطوب الجسيمة والامتحانات الكونية قد تدفع البعض إلى التصريح أو القبول بأفكار ومعتقدات لم تكن لتخطر على بالهم لولا ذلك الابتلاء؛ إذ إنَّ المحن والفتن تزعزع كثيرًا من اليقينيات، وتدفع بردود فعل فكرية عنيفة، وتُحدِث انقلابات في الرُّؤى والتصورات، لا على أسس عقلية ومنطقية، بل استجابة لضغط الواقع وسطوة الأحداث.

ومن أبرز شواهد هذا المحرِّك: موجةُ الإلحاد إثر الأحداث التي عصفت ببعض الأقطار الإسلامية؛ إذ أثيرت التساؤلات عن الشر، والحكمة منه، وانتهت بكثير من الشباب إلى الإلحاد والأفكار العبثية والعدمية.

وفي نصوص الشريعة الإسلامية ما يدل على اعتبار هذا المحرِّك وأثره في الأفكار والمعتقدات؛ فقد حذَّرت المسلم من تمنِّي البلاء ليُثبت صدق إيمانه فيكون منه العكس، كما بيَّنت الغاية من الابتلاء، وهو الاختبار والتمحيص، وحثَّت المؤمنين على الصبر عند الفتن والشدائد، ضاربةً لهم الأمثال من صبر الأنبياء والمرسلين، ووعدت الصابرين منهم بالعوض والتمكين وحسن الثواب عند الله تعالى.

المحرك الثاني/ سُنّة التغيير والمداولة:

يُقصَد بهذا المحرِّك أن يكون سبب ظهور الفكرة أو الاقتناع بها ما يطرأ على المجتمعات من تغير الأحوال واختلاف الأطوار؛ إذ إن الحياة الفكرية تتفاعل مع الجوانب الأخرى للحياة العامة، ومن الطبيعي أن تمتد آثار التغيرات الاجتماعية والاقتصادية وغيرها إلى التصورات والمفاهيم والنماذج الفكرية والمعرفية.

وقد تضمَّنت النصوص الشرعية ما يدل على اعتبارها هذا المحرِّك؛ كبيان تأثير تغير الحال العام بالتغيير الخاص أو الشخصي ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وكتسلية المؤمنين وتثبيتهم بأنَّ المستقبل لهذا الدين، وكمراعاة علة تغير الحال في كثير من الأحكام والفتاوى الشرعية.

المحرك الثالث/ سنة التدافع:

قرَّر المؤلف أنَّ سُنّة التدافع تجعل الانقسام الفكري أمرًا حتميًّا، إذ تدفع الفردَ إلى تبنّي فكرةٍ

ما، لكونها انحيازًا طبيعيًّا إلى أحد أطراف الصراع القائم، كما أن استحضار الخلاف والمعارضة يدفع الشخص للتصريح بأفكار أو تبنيها لا لذات الفكرة بل لمجرد المعارضة.

وقد شملت النصوص الشرعية ما يدل على اعتبارها هذا المحرِّك؛ فقد أكَّد القرآن الكريم حتمية التدافع، وأزلية الصراع بين الحق والباطل، وأنَّ الانقسام العقدي بين الناس سنةٌ إلهيةٌ باقيةٌ إلى يوم القيامة، مع التأكيد على المقتضيات الشرعية لذلك من مدافعة المرء لهواه ونفسه، ومجاهدة النفس الأمارة بالسوء، وضبط الانفعالات النفسية والسلوكية في أجواء المدافعة الفكرية.

> **سُنّة التدافع تجعل الانقسام الفكري أمرًا حتميًّا، إذ تدفع الفردَ إلى تبنّي فكرةٍ ما لكونها انحيازًا طبيعيًّا إلى أحد أطراف الصراع القائم، كما أن استحضار الخلاف والمعارضة يدفع الشخص للتصريح بأفكار أو تبنيها لا لذات الفكرة بل لمجرد المعارضة**

المحرك الرابع/ الظرف الاجتماعي:

أوضح المؤلف في هذا المحرِّك ما للبيئة الاجتماعية من قوةٍ في توجيه الفرد إلى أنماط معينة من النظر، وأطر مخصوصة من التفكير، ورفض غير ذلك من الأنساق الفكرية والنماذج المعرفية.

والناظر في الشريعة الإسلامية يجد أنها قد اعتبرت هذا المحرِّك؛ إذ أقرَّت بأثره في تشكيل الهوية العقدية للإنسان، من غير إقرارٍ بقبوله بالضرورة، بل لبيان سبب الباطل منهاً، وقبول المحق منها ومراعاته، وقد فقه علماء الإسلام أثر هذا المحرِّك، فناقشوا الأحوال المتأثرة به، كأوضاع الأقليات الإسلامية في بلاد الكفر، وما تقتضيه البيئة الاجتماعية هناك من فتاوى خاصة، وتقديرات معيَّنة.

المحرك الخامس/ سلطة الأقران:

ضغط العلاقات الشخصية وما يمارسه المحيط الخاص من تأثيرٍ نفسي وفكري من أعْمَل الأسباب في توجيه الفكر وتشكيل الرؤى والتصورات؛ فكثيرًا ما يخضع الفرد للسلطة الفكرية لدائرته الخاصة؛ تأثرًا، أو خشية الانعزال أو النبذ الاجتماعي ونحو ذلك، ومن شأن هذا أن يرسخ سلوكًا عقليًّا بعيدًا عن الإنصاف، والعدالة الفكرية.

وقد جاءت الشريعة الإسلامية بتوجيهات وآداب تدل على اعتبار هذا المحرِّك فيها؛ فمن ذلك إقرار الحديث النبوي بأثر القرين، والنهي عن اتخاذ قرناء السوء ومخالطة أهل الشر والفجور، والحث على لزوم أهل العبادة ومجاهدة النفس على ذلك.

المحرك السادس/ العصبية للقبيلة أو الأشياخ:

عرض المؤلف في هذا المحرِّك لأثر العصبية القبَلية والتبعية المذهبية والانقياد للأشياخ والكبراء في تحريك الأفكار إلى وجهات معينة، وهو من أقوى المحرِّكات الفكرية وأكثرها شيوعًا في التاريخ الفكري والثقافي للبشرية جمعاء. والقارئ لقصص القرآن الكريم يرى كيف كذَّبت الأمم البائدة الرسل، وأنكرت النبوات تعصبًا للآباء وتعظيمًا لرفات الأسلاف، وقد نعى القرآن الكريم على المشركين ذلك في كثير من المواضع، كما تضافرت نصوص الوحيين على نبذ العصبية، والتحذير من دعوى الجاهلية، والتنفير منها.

وقد أدرك أئمة الإسلام خطر العصبية ومآلاتها على الدين والأمة؛ فنهوا عن تقليدهم بلا حُجَّة، وصرَّحوا أن معيار الحق والباطل هو الدليل، فالرجال يعرفون بالحق، والحق لا يعرف بالرجال.

المحرك السابع/ الفقر:

فالفقر وضيق الحال يؤثر في الإنسان، وينهك قواه النفسية والبدنية والعقلية، ومن شأن ذلك أن يدفعه إلى اتجاهات فكرية معيَّنة، ويُؤثِّر في رؤاه وتصوراته الجزئية والكلية، ما كان ليعتنقها في حال غناه.

والتدليل على تأثير هذا المحرِّك ظاهر؛ فمحاربة الفقر، وسدّ حاجة المعوزين، والمقاربة بين الطبقات؛ ظاهر في أحكام الشريعة الإسلامية ونصوص الكتاب والسنة.

المحرك الثامن/ الاسترزاق المعيشي:

فتحصيل الرزق والسعي في طلب المعاش قد يكون سببًا للانحياز الفكري لصاحب الفكر والرأي، والاصطفاف معه، وتغيير التموضع الثقافي.

وقد راعت الشريعة هذا المحرِّك، فحثَّت على طلب الرزق، والتماس وجوه الحلال، ودعا النبيُّ عليه الصلاة والسلام إلى العمل والاكتساب، والنَّهي عن سؤال الناس، وقد أدرك أهل النظر أثر هذا المحرِّك وتبعاته؛ فأوقفوا الأوقاف على العلماء وطلاب العلم؛ ليتفرغوا للتحصيل والبحث، ويتحرَّروا من قيود الحاجة، وتبعاتها على الحرية الفكرية، والقناعات العلمية.

المحرك التاسع/ الطمع والجشع المالي:

حيث كثيرًا ما يكون سبب القناعة بفكرة أو الدفاع عنها: الطمع في المال، والرغبة في الاستزادة منه، ممن يملكه.

والقارئ لنصوص الشريعة الإسلامية يجد فيها اعتبارًا لهذا المحرِّك؛ فقد جاءت بذم الطمع والهلع، وحذَّرت المسلم من عاقبته على دينه، وأخبر النبيُّ ﷺ أنَّ فتنة هذه الأمة هي المال، كما نعى الحقُّ سبحانه وتعالى على من باع دينه بثمن قليل، وفي ذلك تقرير لآثار محرِّك الجشع والطمع في الدِّين والمعتقد.

المحرك العاشر/ الغلبة الحضارية:

للهزيمة الحضارية آثارٌ عميقةٌ في الساحة الفكرية والعقدية؛ تتمثل في تبعية المغلوب لثقافة الغالب، على ما قرَّره ابن خلدون من «أن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده».

ومن أبرز شواهد هذا المحرِّك: الخطاب الانهزامي أمام الغرب في الفضاء الفكري العربي، بالدعوة إلى استنساخ النموذج الغربي، والانقلاب على القيم الإسلامية، والقطيعة مع الهوية التاريخية، والحط من التراث، وغير ذلك.

وقد جاءت النصوص الشرعية بما يدل على اعتبار هذا المحرِّك، لما له من أثر عظيم في تشكيل هوية الفرد والمجتمع؛ فأكَّدت أنَّ غاية الجهاد هو تمكين الشريعة الإسلامية والاحتكام إليها، كما حرصت على بثِّ روح العزة في نفوس المسلمين، وحذَّرتهم من الروح الانهزامية؛ لما لذلك من تأثير على أفكارهم وتصوراتهم، ونعى القرآن الكريم على المنافقين ابتغاء العزة عند المشركين، وفي ذلك تقرير لتأثير الغلبة الحضارية في الأفكار والمعتقدات.

المحرك الحادي عشر/ الظلم والجور:

بَيَّن المؤلف في هذا المحرِّك أنَّ الفكرة قد تنشأ جراء الظلم والعدوان؛ فقد يضطهد المرء لأفكاره أو لأسباب أخرى؛ فتتولد لديه آراء جديدة جراء ذلك، وكثيرًا ما تبدو الأفكار مبنية على أساس علمي ثم يتبين أنها وليدةُ مظلومية صاحبِها؛ للنيل ممن ظلمه أو التنفيس عن غضبه وسخطه، وغير ذلك.

وإذا كان الظلم سببًا لاضطراب الدول واختلالها فمن الطبيعي أن يكون سببًا للصدام الفكري والصراع الأيديولوجي.

ولعظيم أثر محرِّك الظلم والجور فقد نهت الشريعة الإسلامية عنه وحذَّرت مرتكبيه، وشرعت للمظلوم القصاص ممَّن ظلمه والهجرة حفاظًا على دينه، كما جاءت النصوص بمواساة المظلوم وتعزيته، وفي ذلك طمأنة لنفسه؛ لئلَّا تسخط أو تسيء الظنَّ بالله تعالى.

المحرك الثاني عشر/ التغيرات السياسية:

تناول المؤلف في هذا المحرِّك، أثر التغيرات السياسية وتبدل موازين القوى ونظام الحكم في نشوء الأفكار وانتشارها والعكس؛ وذلك لأنَّ الإنسان يتأثر بما حوله وإن لم يكن له سلطانٌ عليه فكيف إذا كان له ذلك.

وقد اعتبر الشرع هذا المحرِّك؛ فأوجب تطبيق أحكام الشريعة لما لها من أثر في تشكيل التصورات والآراء، وقرر تأثير الحكم والسلطان على الأفكار والآراء، وحمَّل الراعي مسؤولية أفكار ومعتقدات رعيته.

> **للهزيمة الحضارية آثارٌ عميقةٌ في الساحة الفكرية والعقدية؛ تتمثل في تبعية المغلوب لثقافة الغالب وهو ما يظهر في الخطاب الانهزامي أمام الغرب بالدعوة إلى استنساخ نموذجه، والقطيعة مع الهوية التاريخية، والحطّ من التراث والقيم الإسلامية**

محركات الأفكار والخطابات الحداثية المعاصرة:

عرَّج الكاتب على منهج الحداثيين في توظيف بعض المحرِّكات في تأويل التراث، وكأنه أراد بذلك التمثيل لـ (الخطأ في تشخيص المحرِّك الفكري)؛

فإذا أخطأ الناظر في التشخيص وادَّعى مُحرِّكًا آخر، فإن ذلك سيوصله إلى إخراج الفكرة عن سياقها الصحيح، ونسبتها إلى غير دوافعها الحقيقية.

وقد مثَّل لذلك بخطأ الحداثيين في قراءة الآراء والمعتقدات في التراث الإسلامي؛ حيث فسروها بالدوافع والأغراض السياسية، وجعلوها أصلاً وأساسًا في قراءتهم، حتى باتت الأفكار والعقائد متهمةً بالأغراض السياسية ما لم يثبت ضد ذلك، وفي ذلك شطط عن النهج المستقيم.

كما نبَّه بإجمال على أنَّ التوظيف الحداثي للمحرِّك السياسي لم يقتصر على استعماله أداةً للقراءة والتشخيص، بل اتخذه أيقونة أيديولوجية للخطاب الحداثي، أي إنَّ آلة النظر تحوَّلت شِعارًا دعائيًّا ولافتةً تسويقيةً لذلك المنهج.

اعتبار المحركات في القراءة الفكرية:

عرض الكاتب تحت هذا العنوان لأحوال الباحثين في محركات الأفكار، ودرجة اعتبارهم لها ضمن ثلاثة اتجاهات:

١. الاتجاه الأول: المبالغة في أثر المحرِّكات والدوافع، بادعاء أنَّ الفكرة لم تنشأ إلا لذلك المحرِّك؛ فالمحرِّك هو السبب المُوجِد، وليس بعامل مؤثِّر، أو بإعطاء المحرِّك الأولَوية في تأويل الأفكار وتفسيرها.

كما أن أصحاب هذا الاتجاه قد تجاوزوا بالمحرِّكات وظيفتها التفسيرية إلى جعلها أداة تَبَاهٍ منهجي، ودعوى للنيل من الأفكار المخالفة.

٢. الاتجاه الثاني: إهمال محرِّكات الأفكار، بالتقليل من شأنها، بل وتخطئة من يَعتدُّ بها، وهذا الاتجاه لا يقل خطورة عن الاتجاه الأول؛ لأنَّه قد يقود إلى الخطأ في فهم سياقات الأطاريح الفكرية، والحكم النهائي على الأفكار والمعتقدات.

٣. الاتجاه الثالث: الاعتدال في اعتبار محركات الأفكار، باستصحاب هذه الأداة عند مناقشة الأفكار، مع الإقرار بقابلية نشوء الفكرة دون محرِّك خارج عن إطارها الموضوعي، والاستمداد المنهجي القائم على الأصول الشرعية والقواعد المعتبرة.

ختامًا:

البحث في محرِّكات الأفكار يحتاج إلى استفادة أعمق من حصيلة الدراسات النفسية والاجتماعية، وتتبع آلية عمل كل محرِّك، واستكشاف الحيل والمغالطات النفسية في التعامل معه، وبحث الطرق الممكنة لتشخيصه وتوجيهه.

ومن المقترح في هذا المقام أن تُدرَس التحولات الفكرية لبعض الشخصيات المؤثِّرة في المشهد الثقافي؛ بحيث تكون دراسة تطبيقية، ترشد الباحثين إلى الطرق العملية لبحث منطلقات الأفكار، وتشخيص محرِّكاتها الخفية، ودوافعها غير المعلنة.

قَالَتْ نَمْلَةٌ

د.خير الله طالب

سار جند سليمان عليه السلام من الجن والإنس والطير ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٨-١٩].

يخلّد الذكر الحكيم قصة الإيجابيين مهما كان شأنهم وحجمهم؛ تعليمًا لنا وتربية.

والحكمة المقصودة هنا في غاية الوضوح، فالنملة تخاطب النمل (يا أيها النمل)، وهذا درس لمن يتكلم أن يعرف مَن يخاطب، وألّا يخاطب إلا مَن يعرف حالَه وحاجته ولغته ومستوى فهمه، فيناديه نداءً يفتح قلبه ليتهيأ عقله للفهم والقبول.

كانت وصية النملة واضحة مباشرة مختصرة (ادخلوا مساكنكم). وكم من كلمة تدخُل القلب ثم تخرج بسبب التطويل والإسهاب الذي يُحاصَر به المخاطَب، فيحاول فكّ حصاره، ويبدأ الجدل فيرحل العمل.

ولئلّا يظن النمل استبداد النملة، فقد أوضحت لهم السبب والغاية والدافع الباعث لها على قولها، (لا يحطمنكم سليمان وجنوده). ومَن لا يعرف السبب لا يقبلُ الأمر، ومَن يتهّم الدوافع يرفُض الأوامر.

وكي لا يخطر في بال النمل ظلمُ سليمان عليه السلام لهم، فإنّ صاحبتهم قد أشعرت أهلها بعذر سليمان عليه السلام (وهم لا يشعرون)، فركّزت انتباه أخواتها نحو دخول المساكن، ورَعَت مشاعرهم ببيان السبب، وحمت خواطرهم بإعذار سليمان عليه السلام، فضبطت بوصلتهم نحو الهدف دون تراخٍ أو اتّهام يُضعف العزائم، ويحول الطاقة أداةً سلبيةً مدمّرة تقتل ذاتها ولا تضرّ خصمها.

غير أنّ الدرس الأبرز: كيف أنّ النملة لم تتردد في المبادرة الإيجابية بالنصح؛ فلم تمنعها هيبةُ نبي الله سليمان عليه السلام، ولا شعورها بأنّها أول مَن ينادي، من توجيه التحذير والتركيز على الهدف؛ حتى نالت استحسان النبي عليه السلام (فتبسم ضاحكًا من قولها). وهكذا تُصنع البيئة الإيجابية التي تشيع فيها النصيحة، ويكثر فيها الداعون إلى الخير.

ما صلح مجتمع إلّا بالنصيحة الصحيحة الصريحة، وما ساءت أحوال أمة إلا بفقدها جُبنًا أو عجزًا، وما قامت دولة إلا بشجاعة أدبية من المجتمع تجاه قادته، ولا بُني مجتمع إلا بتربية حرّة يُبدي فيها الصغير ما يجول في خاطره لوالده وأستاذه دون خوف أو خجل؛ حتى يتربى على نصح قادته، دون الخضوع لهم أو تصيّد لأخطائهم.

لن تجد تاركًا للنصح إلا وجدته سلبيًا باردًا، أو لائمًا لغيره، ولن تجد لائمًا إلا وجدته واقعًا فيما يُلام عليه أكثر من مَلومه، وفي الوقت الذي يُتهم فيه القادة المنجزون بالتفرّد -وهو معيب- فإنّ المعترضين عليهم من ذوي القرب منهم مشاركون لهم في الخطأ شاؤوا أم أبوا؛ لأنَّ الفعل لا ينشأ بعامل واحد، وإنما نتيجة عوامل متفاعلة، وقد قال العزيز جل جلاله عن فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]. والعامة تقول: مَن فرعنك يا فرعون؟ قال: ما وجدت من يردُّني.

ومبدأ الخطأ في النقد: التفات النفس عن مسؤوليتها، واشتغالها بنقد مسؤوليات الآخرين من العاملين الجادّين الذين لا وقت لديهم للدفاع عن أنفسهم، بل يتصدّقون بأعراضهم، أو يتجرّعون غُصصهم، أو ينسحبون من الميادين لنفاد طاقتهم تحت وطأة نقد يهدّ الجبال.

وأعجب ما فيه: العسر البالغ في إقناع جلّ الناقدين المتذمّرين المتنمّرين بأن يكتب أحدهم رسالة نصح خفية يؤازر بها أخاه، أو يدعو للمخطئ في سرّه، أو يطرق بزيارة أخوية باب قلب خصمه. ولسان حالهم: إنّه خصمٌ لا يستحقّ إلّا سهام الكلام، وصواريخ العبارات، وقذائف المنشورات، وقنابل الردود!

ألا ما أحوج هؤلاء -مهما علا شأنهم- إلى التعلّم من قول الله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾.

رواء

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

رواء

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com